

()

This book is electronically published by the Ahl-ul-Bait (A.S.) World Assembly to promulgate the just sect of Shi'a teachings. Reproduction and copy making is authorized.

قيادة الامام الصادق (عليه السلام)

سماحة آية الله السيد علي الخامني "دام ظلّه"

ترجمة الدكتور محمد علي آذرشب

مقدمة المجمع

تتميز حياة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بآنها سلسلة مترابطة الحلقات محكمة البناء، وكانت طبيعة المرحلة التي يعيشها كل امام تفرض عليه موقفاً قد يبدو ظاهرياً مختلفاً اختلافاً جذرياً عن موقف من سبقه أو لحقه ، كما في موقفي الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام . وهذا في الحقيقة ليس اختلافاً، بل هو استجابة لما تمليه الظروف ، بحيث يكون الموقف حيال هذه الاستجابة مكملاً للدور الذي كان يقوم به الامام السابق ، أو هو مههد للدور الذي سوف يضطلع به الامام اللاحق .

ونتيجة لعدم وضوح الرؤية عند البعض من تعرض حياة الأئمة بالبحث كانت تظهر نظريات وتطرح آراء لتحليل واقع وطبيعة الدور الذي كان كل إمام يقوم به ، وهذه النظريات والآراء ليس منشاءها الفهم الصحيح المدرك لحقيقة الموقف ، بل هو التحليل الخاطو الدراسة الهامشية التي لا تستند إلى أسس الامامة والعصمة ، بل تبني على أسس واهية تتعارض كلياً مع الايمان بالقيادة المعصومة التي كان ينتهجها كل امام بناءً على ما يفهمه الامام نفسه من ظروفه المحيطة به وطبيعة المرحلة التي تكتنفه ، وأيضاً بناءً على كون موقفه ليس موقفاً تتحكم فيه الأهواء الشخصية أو المصالح الذاتية أو الاستجابات الانفعالية وإنما هو موقف حكيم مدروس بعناية ومسدد باللطف الالهي.

وهذا التحليل الخاطئ شمل حياة جميع الأئمة ، فاضفى عليهم طابع الاندفاع الانفعالي تارة ، كما في موقف الامام الحسين عليه السلام وثورته . أو طابع الركون إلى الهدوء والعزلة عن معتك الحياة السياسية ، كما في موقف الامام السجاد عليه السلام . أو طابع الانسجام مع الحكام الظالمين كما في موقف الامام الصادق عليه السلام .

والكتاب الذي بين أيدينا هو محاضرة ألقاها سماحة ولي أمر المسلمين السيد الخامنيدام ظلّه ، قبل قيام الثورة الاسلامية المباركة فيايران ، يتعرض فيها لهذه النظريات الخاطئة ويفنّدها بآدلة علمية وتاريخية متينة ، ثم هو يطرح طرحاً واعياً ودقيقاً النظرة الصحيحة التي تفسر الموقف الذي كان يتحرك من خلاله كل إمام ليمهد الطريق للامام الذي يليه ، حتى وصل الامر إلى الامام الصادق عليه السلام الذي لم تكن قيادته خاضعة للأهواء أو المصالح أو الخوف من الظالمين ، بل كان موقفه - كما ذكرنا - موقفاً مبدئياً معصوماً ، رسمه له الله سبحانه ومهّده له آباؤه المعصومون ، وطبّقه هو بجنكته السياسية ووعيه الرباني ، ليقود دفّة السفينة الاسلامية إلى شاطئ النجاة والأمان ، وليحفظ للمسلمين دينهم وعقيدتهم وفق اسسها الحمديّة الصحيحة التي حاولت الأيدي الظالمة على امتداد التاريخ طمس معالمها وإطفاء نورها.

وانطلاقاً من مسؤولية المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام فإنه يقوم بطبع هذا الكتاب ونشره ليكون نقطة إضاءة في الفكر الاسلاميوالتاريخ الصحيح ، وليكشف للمتطلّعين إلى أهل البيت عليهم السلام الوجه الناصع لمسيرتهم المباركة .

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

مقدمة المترجم

هذه المحاضرة قصّة ..

والقصّة تبين مشهداً من مشاهد الساحة الايرانية قبل انتصار الثورة الاسلامية بكل ما كان فيها من نشاط اسلامي ، ومن تحديات وعقبات .

في شهر شوال سنة ١٣٥٣ هجرية شمسية (١٣٩٤ هـ . ق) دقّ جرس الهاتف في منزل الاستاذ المحاضر بمدينة مشهد . كان على الخط الاستاذالشهيد الدكتور محمد مفتّح من طهران . بعد تبادل التحايا طلب الشيخ مفتّح من صاحب المحاضرة أن يقدم الى طهران في يوم ٢٥ شوال (يوم وفاة الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام) ليلقي محاضرة عن الامام الصادق .

كانت ظروف صاحب المحاضرة صعبة آنذاك ، بسبب زحمة الاعمال والدروس وكثرة المراجعات من جميع أرجاء ايران . كان يلقيالمحاضرات في مسجد "الامام الحسن " ثم في "مسجد الكرامة " فيمشهد الواقعة شرق ايران ، وينتقل منها الى غرب ايران ليحاضر فيهمدان وكرمانشاه . وفي مشهد يدرس التفسير ونهج البلاغة والحديث ... اضافة الى دروس تخصصية في الفقه واصول الفقه .

كل هذا كان يقوم به في ظروف ضاغطة جدا... ظروف مالية صعبة ، وظروف سياسية قاسية ... لقد كان يعيش في فقر مدقع دون أن يعلم بذلك أحد، ودون أن يشكو ذلك لأحد. والسلطة كانت تحصيله انفاسه وتابعه وتراقبه بشدة . أغلقت "مسجد الكرامة" في هذا العام بالذات ، فاكفى بمسجده الصغير "مسجد الامام الحسن" يواصل فيه نشاطه .. ثم اعتقلته في شتاء ذلك العام . وبذلك دخل سجنه الخامس في قصة يطول ذكرها.

في مثل هذه الظروف جاء طلب الشيخ مفتح لإلقاء محاضرة عن الامام الصادق عليه السلام ، في طهران بمسجد "جاويد" حيث كان الشيخ مفتح يؤم الناس فيه .

اعتذر صاحب المحاضرة عن الحضور للأسباب المذكورة ، ولعلمه بوجود اساتذة يملأون الفراغ في طهران من مثل الشيخ مفتح نفسه ولكن الشيخ أصر... وأصر... وما كان من المحاضر إلا الامتنال .

بعد أيام دق جرس الهاتف ثانية ، وكان الشيخ مفتح على الخط من طهران وقال :

ان الشرطة منعت المحاضرة !

تنفس الاستاذ المحاضر الصعداء، وأحس بالراحة وحمد الله على ذلك.

ولكن الاستاذ مفتح مالث أن اتصل ثالثة وقال :

لقد رُفِع المنع والحمد لله ، ولا بد أن تحضر في الوقت المقرر. حاول السيد المحاضر أن يعتذر ولكن الشيخ قال له : لقد أعلننا نباء المحاضرة في الجامعات . حاول المحاضر أن يتعلل بصعوبة الحصول على تذكرة الطائرة . لكن الشيخ أبدى استعداداه لتوفيرها... لا بد من السفر إذن !

في يوم القاء المحاضرة نفسه غادر مشهد، وقبل ساعات من بدنها وصل طهران واتجه مباشرة الى المسجد.

فرح الشيخ كثيراً حينما رآه ، وكان هو وما يقرب من مائتي شاب مستعدين للصلاة . وفي اثناء الصلاة التحق عدد آخر من الشباب فاصبحوا بضع مئات . وبعد دقائق تدفقت افواج الطلبة فجاءة على المسجد، بعد انتهاء الدروس في الجامعة .

غص المسجد وفناؤه والزقاق الجاور له بالناس .. بدأ السيد الاستاذ يلقي محاضراته ويده أربعون ورقة كتب فيها مذكرات ترتبط بالمحاضرة . واستمر يتحدث ويتحدث والجالسون منشدون إليه ، وكائن على رؤوسهم الطير . واستمرت المحاضرة ٣ ساعات ، وخلالها تناول بالشرح بضعاً من الورقات الاربعين التي أعدها مذكرات محاضراته . واختتم المحاضرة رافعاً الاوراق الاربعين الى الحاضرين مشيراً إلى أنه بين قليلاً من كثير مما أعده .

ولم يمض طويلاً على هذه الحادثة إذ اعتقل الشيخ مفتح ومنع من الصلاة في مسجد "جاويد" فانتقل بعد الافراج عنه إلى الصلاة فيمسجد قبا".

وهنا لا بدّ من التنويه إلى أمر هام وهو: إن السيد الاستاذ حفظه الله القى هذه المحاضرة قبل عشرين عاما، وبعدها كانت له مطالعات ودراسات واسعة في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وربما عنت له نظرات جديدة ، أو تغير رأيه في مسألة معينة من المسائل المطروحة في المحاضرة . وكم كنا نودّ أن نرى رأيه فيها لنحصل على آخر نظراته قبل أن نقدم على نقلها إلى اللغة العربية . ولكن عظم المسؤوليات وزحمة الاعمال وتراكمها حال دون ذلك، لذلك نقدمها الى القارئ الكريم كما هي، ففيها من الجديد الشيء الكثير، وفيها من تراثيات الفكر الاسلامي المطروح في ايران قبل انتصار الاسلام ما يهمّ كل متتبع .

ويلاحظ في المحاضرة ان السيد الاستاذ يواجه تيارين طالماواجههما في محاضراته ودروسه وهما: التيار اليساري المتحامل على الاسلام وعلى رموز الاسلام ، والذي يصف رجال الاسلام بانهم لم يتصدوا للدفاع عن المحرومين والمظلومين بل كانوا سندا للظالمين والمترفين !! والتيار المهزوم القاعد الذي يحاول أن يجد في حياة ائمة الاسلام ما يبرر قعوده وسكونه ، وهذان التياران كان لهما ثقلهما فيالساحة الايرانية قبل تنامي الثورة الاسلامية ، وكانا يشكلان عقبة أمام العاملين نحو دفع المجتمع على المسيرة الاسلامية .

الدكتور محمد علي آذرشب

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)

(وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين)

نظرتان خاطئتان

"الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله ومن اهتدى بهداه "

ثمّة نظرتان خاطئتان بشيء الامام الصادق عليه السلام ، ناشتتان عن لونين من التفكير؛ ومن الغريب أنهما على اختلافهما تتقاربان فيالشكل والحتوى والمنشاء، بل يمكن القول ان النظرتين تشتركان في بعض المحاور اشتراكا تاما:

النظرة الاولى : نظرة مدافعة يديها أولئك الذين يخالون أنهم من أتباع الامام ومواليه .. إنها نظرة شيعة الامام الصادق عليه السلام بالقول ، لا بالعمل ، وتتلخص بما يلي:

إن الامام الصادق عليه السلام توفرت له ظروف لم تتوفر لإمام من قبله ولا من بعده ، استطاع أن يستغلها لنشر أحكام الدين ، وأن يفتح أبواب مجلسه لطلاب العلم . جلس في بيته ، وفتح صدره للمراجعين ، وتصدّى للتدريس ونشر المعارف ، وارتوى كل من قصده من طلاب العلم وناشدي الحقيقة . اشترك في مجلس درسه أربعة آلاف تلميذ، وعن طريق هؤلاء التلاميذ انتشرت علوم الامام الصادق ، منها العلوم الدينية : كالفقه والحديث والتفسير، ومنها العلوم الانسانية : كالتاريخ والاخلاق وعلم الاجتماع .

وتصدى الامام لمناقشة المنتمين الى الافكار الدخيلة ، والرّد على الزنادقة والماديين والملحدين ، مباشرة أو عن طريق تلاميذه ، وقارع أصحاب النحل المنحرفة بقوة . ولكل مجالٍ من مجالات الدين ، ربّى كوكبة من الطلبة والمتخصصين .

ويقول أصحاب هذه النظرة أيضا: إن الامام - وحرصا على استمرار هذا المشروع العلمي - اضطر الى عدم التدخل في السياسة ، فلم يُقدم على أي عمل سياسي، بل وأكثر من ذلك فانه سلك طريقا يتماشى مع سياسة خلفاء زمانه لاسترضائهم ، ولاستبعاد أية شبهة يمكن أن تقوم حول نشاطه . لذلك لم يجابههم ، ومنع أيضا أن يجابههم أحد. وقد تستلزم الظروف أن يذهب اليهم وينال جائزتهم وحظوتهم ، وإن حدث أن أساء الحاكم به الظن - نتيجة حدوث حركة ثورية أو تهمة لفقها تمام - يتجه الامام عليه السلام الى استمالة الحاكم ومجاملته .

ويورد اصحاب هذه النظرة شواهد تاريخية ، من ذلك رواية ربيع الحاجب وأمثالها، التي تصور الامام في مجلس المنصور وهو يبدى بالاعتراف بالتقصير وعلان الندم ، وتنقل عن الامام عبارات مدح وثناء يبدىها تجاه الخليفة المنصور، مما لا يشك الانسان في كذب صدورها عن الامام الصادق عليه السلام تجاه طاغية المنصور. هذه العبارات تصور المنصور بانه كيوسف وسليمان وأيوب ، وتطلب منه أن يصبر على ما يرى من اساءات الامام او اساءات بني الحسن : "إن سليمان أعطي فشكر، وإن ايوب ابتلي فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت من ذلك السنخ(١) .

(... هذه نظرة تصور الامام عالما، باحثا، واستاذا كبيرا انتهل من بحر علمه ابو حنيفة ومالك و... لكنه كان بعيدا كل البعد عن كل مقاومة لعدوان السلطة على الدين ، وعن كل ما تتطلبه مهمة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر امام السلطان الجائر ... كان بعيدا كل البعد عن الثوار من امثال : زيد بن علي ومحمد بن عبدالله والحسين بن عليشهيدي فح ، بل عن الجنود المقاتلين مع هؤلاء الثوار، ولم يكن يبدي أبرد فعل تجاه ما يحل بالمجتمع الاسلامي، ولا يكثر بما كان يكتنزه المنصور من أموال طائلة ، ولا بما كان يعاني منه ابناء رسول الله فيجبال طبرستان وماندران ، وفي رساتيق العراق وايران من جوع، بحيث لا يجدون ما يسد رمقهم ، ولا ما يستترهم إذا ارادوا الصلاة جماعة !! ولا يهتم بما كان يتعرض له أتباعه من قتل وتعذيب وتشريد وهم صفر اليدين من كل متاع يتنعم به الافراد العاديون من ابناء المجتمع آنذاك!!

في ظن اصحاب هذه النظرة أن الامام الصادق لم يبد أية حساسية تجاه هذا الوضع ، بل كان قانعا بانه ياءتيه من مثل ابن ابي العوجاء، فيقارعه بالحجج والبراهين ويغلبه ، ويخرج من بيته مهزوما.. دون أن يؤمن طبعاً.

هذه هي صورة الامام الصادق كما يرسمها اصحاب النظرة الاولى .

النظرة الثانية : يحملها اولئك الذين لا يعترفون بامامة الصادق ، وهي نظرة متحاملة على الامام ترى انه عليه السلام وقف تجاه ما كان يحيق بالمجتمع من ظلم موقف عدم اكرات . فالمجتمع في زمانه كان يضح بالمظالم الطبقية والطغيان السياسي والسيطرة المقيتة على أموال الناس(٢) وانفسهم وأعراضهم ، وأكثر من ذلك على عقولهم ونفوسهم وتفكيرهم ومشاعرهم . حتى لم تعد الامة تتمتع بابهسط الحقوق الانسانية ، بما في ذلك القدرة على الانتخاب . مقابل هذا كان الطواغيت يتلاعبون بمقدرات الناس كيف ما شاءوا، وينون القصور الفارهة ، مثل قصر الحمراء جوار آلاف الخراب التي يعيش فيها البؤساء من عامة الشعب .. في مثل هذا المجتمع

المليء بآلوان التعسف والاضطهاد يتجه الصادق الى البحث والدراسة وتربية الطلبة ،ويصبّ اهتمامه على تخريج الفقهاء والمتكلمين..!!

إن كلا النظرتين مجحفتان ، لا تقومان على أساس ولا تستندان الى دليل واقعي. غير أن النظرة الاولى أشد إجحافاً وأكثر ظلماً للامام الصادق عليه السلام لانها صادرة عن لسان من يدعي أنه من شيعته واتباعه .

لا أريد أن أنهج هنا اسلوب البحث العلمي المتداول في الدراسات بعرض جميع النصوص الواردة عن حياة الامام الصادق عليه السلام وأقارن بينها من حيث المتق والسند لأخرج بنتيجة ، فذلك له مجاله فيمحالس البحث العلمي.

اريد هنا أن اطرح نظرة ثالثة مقابل تينك النظرتين .. واقرن هذه النظرة بأدلة مستقاة من مصادر موجودة بين ايديكم ، كي تستطيعوا مثل حكم محايد - أن تتطلعوا من خلالها الى الوجه الحقيقي للامام عليه السلام ..

وقبل أن ادخل في صميم البحث يلزمني أن أشير الى أن كلا النظرتين لا تقومان على أساس صحيح موثوق به .

فكما ذكرت أن النظرة الاولى تستند الى عدد من الروايات (اوضحت وضع اسنادها في الهامش) . وهذه الروايات تنسجم طبعاً طالبي الراحة ومحبي العافية ، فيتذرعون بها باعتبارها حجة قاطعة . انها كافية لأن تكون مبرراً للانتهازيين من ذوي النفوس الضعيفة المهزوزة .

فهذه الروايات تصور الامام بآلوانه راح يتملق المنصور لحفظ حياته ، مع أنه كان قادراً أن يحتوي الموقف بأسلوب حكيم . واذا كان ذلك شأن القدوة فما بالك بالمقتدي؟

نعتقد أن نصّ هذه الروايات كاف لاثبات زيفها. فالامام كان قادراً على دفع شرّ المنصور عنه بطرق أخرى كما حدث في مواقف عديدة تنقلها روايات موثوقة ، فلا دليل إذن على أن يعمد الامام الى هذا الملق الزائف والثناء الكاذب ، ليضفي على المنصور خصالاً ليست فيه ومكانة لا يستحقها. فمكانة الامامة ارفع من ذلك بكثير دون شك، وأسمى من أن تتلوث بمثل هذه المواقف المنحطة.

ومن حيث السند، فإن تحريّ الدقة في الرواة يكشف لنا عن أشياء كثيرة . ففي عدد من هذه الروايات نرى الاسناد ينتهي بالربيع الحاجب . والربيع حاجب المنصور! وما أعدله من راو؟! ويظهر من المصادر أن الربيع كان أقرب الناس الى المنصور، وأكثرهم زلفه لديه . استورزه المنصور سنة ١٥٣هـ (٥ سنوات بعد وفاة الامام الصادق)، أي نال رفعة في المقام .. (ولعله نال هذا الترفيع ثمناً لما نسبه للصادق عليه السلام من أكاذيب.

مثل هذا الشخص الذي ثبت اخلاصه ووفاءه لجهاز الخلافة(٣) لا يستبعد منه أن يختلق الاكاذيب ، فينسب كلام الملق الى الامام الصادق أو يغيّر كلاماً حاداً قاله الامام الى كلام تضرّع والتماس . هذا ليس بغريب على هذا الحاجب ، لكن الغريب أن يصدق عاقلٌ قولاً أحد بطانة الخليفة بشأن عدو الخليفة ، ومقولة تشيّع هذا المفتري، وهيمقولة تشكل جزءاً من المؤامرة الدينية .

والنظرة الثانية ايضا واهية بالدرجة نفسها الدرجة وغير علمية . انها تشبه أحكام المستشرقين المنطلقة عن غرض أو جهل ، ومن روح مادية محضة لا تتسجم اطلاقا مع طبيعة الاحداث الاسلامية . ولقد شاهدنا تلك الاحكام الفجة النافهة التي تصدر عن بعض المستشرقين تجاه الاسلام وأئمة اهل البيت عليهم السلام . كقول احدهم (٤) عن الامام الحسن المجتبي أنه باع الخلافة بالمال ! وقضى عمره بين العطر والمرأة والتزف ! وقول مستشرق آخر (٥) إن الاسلام نقل المجتمع من مرحلة الرقبة الى مرحلة الاقطاع !!

والنظرة الثانية التي نتحدث عنها تشترك مع أقوال هؤلاء المستشرقين في السطحية والتسرع والمنطلق المادي.

والطريف أن الوثائق التي يعتمد عليها أصحاب النظرة الثانية ليست سوى ما يلفقه أصحاب النظرة الاولى من أحكام !!

النظرة الصحيحة

النظرة الثالثة : والآن نبدأ بالنظرة الثالثة بشاءن الامام الصادق ، وهي نظرة يمكن أن يستنبطها كل ثاقب نظر بالرجوع الى المصادر والمراجع . وهذا الاستنباط لا يختص بحياة الامام الصادق وحده ، بل يشمل كل أئمة اهل البيت ، مع الفارق في خصائص عمل كل منهم حسب ما تقتضيه ظروف الزمان والمكان ، وهذا الاختلاف فيالخصائص لا يتنافى مع وحدة روح العمل المشترك وحقيقته ومع وحدة الهدف والمسير .

من أجل أن نفهم طبيعة المسيرة العامة لحياة الائمة (٦) ، علينا أولا أن نتبين فلسفة الامامة . التيار الذي عرف في مدرسة اهل البيت باسم الامامة ، والذي تتكون عناصره الاصلية من أحد عشر شخصا توالوا خلال قرنين ونصف القرن تقريبا ، انما هو في الواقع امتداد للنبوة .

فالنبي يبعثه الله سبحانه بمنهج جديد للحياة ، وبعقيدة جديدة ، وممشوع جديد للعلاقات البشرية ، وبرسالة الى الانسانية . ويطويحياته في جهاد مستمر ، وجهد متواصل ، ليؤدي مهمة الرسالة الملقاة على عاتقه قدر ما يسمح له عمره المحدود .

وعملية الدعوة يجب أن تستمر بعده ؛ كي تبلغ الرسالة أعلى الدرجات المتوخاة في تحقيق الأهداف . ويجب أن يحمل أعباءالمواصله من هو أقرب الناس إلى صاحب الرسالة في جميع الابعاد؛ كي يبلغ بالأمانة الى محطة آمنة وقاعدة رصينة ثابتة مستمرة .

هؤلاء هم الائمة وأوصياء النبي . وكل الائمة العظام واصحاب الرسالات كان لهم أوصياء وخلفاء . ومن أجل أن نعرف مهمة الامام ، لقد(لا بد أن نعرف مهمة النبي . والمهمة يبينها القرآن الكريم إذ يقول : (أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)(٧)

هذه إحدى الآيات التي تبين علّة النبوة ، وتبين من جهة أخرى مهمة الانبياء . فالانبياء ابتعثوا لبناء مجتمع جديد ، ولاقتلاع جذورالفساد ، ولاعلان ثورة على جاهلية زمانهم ، وقلب مجتمعاتهم . وعملية التغيير هذه يعبر عنها الإمام علي عليه السلام في مطلع استلام مهام حكومته بقوله : .. حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم .(٨)

(... انها عملية صناعة مجتمع على أساس التوحيد والعدل الاجتماعيو تكريم الانسان ، وتحريره ، وتحقيق المساواة الحقوقية والقانونية بين المجموعات والافراد ، ورفض الاستغلال والاستبداد والاحتكار ، وافساح المجال للطاقت والكفاءات الانسانية ،

وتشجيع التعلّم والتعليم والفكر والتفكير.. انها عملية اقامة مجتمع تنمو فيه كل عوامل سموّ الانسان في جميع الابعاد الاساسية ، ويندفع الكائن البشري فيه باتجاه مسيرته التكاملية على ساحة التاريخ .

هذه هي المهمة التي بعث الله الانبياء من أجلها، ونستنتج من ذلك أن الامامة ، باعتبارها امتدادا لمهام النبوة ، تتحمل نفس هذه الاعباء. لو أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَاشَ ٢٥٠ عاما، فماذا كان يفعل يا ترى ؟ وكيف كان يتحرك على طريق الدعوة ، نفس هذه العملية نهض بها الائمة . هدف الامامة هو نفسه هدف النبوة ، والطريق هو الطريق ، أي إيجاد مجتمع اسلامي عادل ، والسعي لصيانة مسيرته الصحيحة .

مقتضيات الزمان مختلفة طبعاً، وبنفس النسبة يختلف التكتيك والاسلوب . النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَاشَ كان يعمل في بداية الدعوة باسلوب يختلف عن اسلوبه حين قطع شوطاً من الطريق نحو تحقيق هدفه المنشود.

حين كانت الدعوة في بداية الطريق ، وكانت محفوفة بآلوان التهديدات والتحديات تطلب الامر تديراً خاصاً مواصلة حمل الرسالة ، وحين ترسخت قواعد النظام الاسلامي، وضرب الاسلام بجوانه في الجزيرة العربية اختلف التدبير والاسلوب ... والثابت والباقي هو الهدف الاسمي الذي أنزلت الرسالة من اجله .. وهو السعي لإيجاد مجتمع يستطيع الانسان فيه أن يطوي مسيرته التكاملية فيجميع الابعاد، وأن تتفجر فيه الطاقات الخيرة والقوى الكامنة الانسانية ، ومن ثم صيانة هذا المجتمع ونظامه الاسلامي.

كان أئمة الشيعة يتجهون - كالنبي - نحو هذا الهدف نفسه ، نحو إقامة نظام عادل اسلامي بنفس الخصائص وعلى نفس المسير. وفي حالة قيام هذا النظام تتجه الجهود نحو صيانة مسيرته واستمرارها.

ما الذي تتطلبه اقامة نظام اجتماعي أو مواصلة مسيرة هذا النظام؟ تتطلب اولاً ايديولوجية موجهة وهادية ينبثق عنها ذلك النظام وتصوغه بصياغتها. ثم تحتاج ثانياً الى قوة تنفيذية تستطيع أن تشق الطريق وسط الصعاب والمشاكل والعقبات نحو تحقيق الهدف . نعرف أن ايديولوجية الائمة هي الاسلام . والاسلام رسالة البشرية الخالدة .. رسالة تحمل في مضمونها عناصر بقائها وخلودها(٩)

وبملاحظة هذه الامور، نستطيع بسهولة أن نفهم المنهج العام لائمة أهل البيت واوصياء النبي الاكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

هذا المنهج ذو جانبين متلازمين : الاول يرتبط بالعميقة ، والثاني بتوفير القدرة التنفيذية والاجتماعية . ففي الجانب الأول تتجه جهودهم وهمهم الى نشر مفاهيم الرسالة وبلورتها وترسيخها، والكشف عن الانحرافات التي تصدر عن المغرضين والمنحرفين ، وبيان الاطروحة الاسلامية لما يستجد من أمور، واحياء ما اندثر من معالم الرسالة بسبب اصطدامها مع مصالح ذوي القدرة والنفوذ، وتوضيح ما خفي على الاذهان العادية من كتاب الله العزيز وستة نبيه .. فمهمة الجانب الاول تتلخص إذن بصيانة الرسالة الاسلامية حية بناءة متحركة على مرّ الاجيال .

وفي الجانب الثاني، كانوا يسعون ، وفقاً لما تقتضيه الظروف السياسية والاجتماعية والعالمية في المجتمع الاسلامي، الى إعداد المقدمات اللازمة لاستلام زمام قيادة الحكم في المجتمع باذنههم بشكل عاجل ، او التمهيد لكي يستلمها على المدى البعيد من يواصل مسيرتهم في المستقبل .

هذا موجز هدف حياة الائمة الاطهار، وهذه هي الخطوط العامة لاهدافهم . من أجلها عاشوا، ومن أجلها استشهدوا.

وإذا كان ما وصلنا من تاريخ حياة الائمة لا يثبت ما ذهبنا اليه ،فان عقيدتنا في الائمة كافية لأن تصور حياتهم بهذا المنظار لا غير، فمابالك إذا كان التاريخ يشهد بما يقنع كل باحث أن حياة ائمة آل البيت كانت في هذا الاتجاه ؟

مراحل مسيرة الامامة

استمرت مسيرة الامامة منذ رحلة رسول الله صلى الله عليه وآله في شهر صفر سنة ١١ هجرية ، حتى وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام في ربيع الاول سنة ٥٢٦٠ هـ . وخلال هذه السنين طوت المسيرة اربع مراحل كان للائمة في كل منها موقف متميز تجاه حكام المجتمع الاسلامي:

المرحلة الاولى : مرحلة السكوت ، أو مرحلة التعاون مع الحاكم .

تميزت هذه المرحلة بقاء المجتمع الاسلامي الوليد كان محفوظاً بآثار الاعداء الذين تربصوا بالاسلام من الخارج بعد أن أحسوا بخطر الرسالة عليهم ، وكان هناك أعداد غفيرة من جماعات حديثة العهد بالاسلام لا تطيق أن ترى تشتتاً في المجتمع الاسلامي، وكل ثغرة في جسد الامة تشكل تهديداً لأساس المجتمع الاسلامي ووجوده .

ومن جانب آخر لم يكن منحني الانحراف قد ارتفع بحيث لم يعد قابلاً للتحمّل بالنسبة لشخص مثل امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام الذي هو أحرص الناس على سلامة الرسالة وسلامة المجتمع الاسلامي . ولعل هذه الحالة التي حدثت في المجتمع الاسلامي التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وآله حين اوصى تلميذه الفداء بالصر عند وقوعها.

لقد استوعبت هذه المرحلة حياة الامام علي عليه السلام منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى توليه الخلافة . وقد شرح الامام موقفه في هذه المرحلة خلال الكتاب الذي وجهه الى أهالي مصر مع مالك الاشر لما ولاه إمارتها إذ جاء فيه :

"فأمسكت يدي، حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام يدعون الى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الاسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به علياً عظيماً من فوت ولايتكم .. فنهضت في تلك الأحداث (١٠)

(... حين عزفت عنه الولاية سكت في سبيل الاسلام ، وحين واجه المجتمع أخطاراً جسيمة ، قام ينافح عن الاسلام والمجتمع الاسلاميها دياً وموجهاً وعملاً في المجالات السياسية والعسكرية والاجتماعية . وفي نهج البلاغة وسيرة علي عليه السلام ما يدل يقين على طبيعة تحرك الامام خلال هذه الفترة .

المرحلة الثانية : مرحلة استلام الحكم . وهذه استغرقت اربعة اعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام . وبضعة اشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام . ومع كل ما اكتنف هذه المرحلة من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب تكتنف عادة كل حكومة تائرة ،فانها سجلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الاسلامية ،بما قدمته من طريقة انسانية في التعامل ، ومن عدل والنزاهة دقيق بآحكام الاسلام بابعاده المختلفة في ادارة المجتمع الاسلامي، هذا الى جانب الحزم والصراحة والجرأة في التطبيق واتخاذ المواقف .

هذه المرحلة من تاريخ الامامة كانت النموذج الذي دعا ائمة اهل البيت عليهم السلام خلال القرنين التاليين الى تطبيقه في الحياة السياسية والاجتماعية . وأتباع مدرسة اهل البيت منشدون باستمرار الى تلك الفترة التاريخية ، ينشدون استعادتها في حياتهم ، ويتخذونها أساساً في تقويم أنظمة زمانهم .

وبهذا المعيار يدينون الأنظمة المنحرفة عن النهج الاسلامي، كما كانت هذه الفترة تجرية ودرساً لحكومة اسلامية ثورية تماماً في مجتمع عصفت به الأهواء والانحرافات . وكانت حالة المجتمع هذه قد القت عبءاً ثقيلاً ومسؤولية كبيرة على الائمة التاليين .

المرحلة الثالثة : هي التي استوعبت السنوات العشرين بين صلح الامام الحسن عليه السلام سنة ٤١هـ ، وشهادة الامام الحسين عليه السلام سنة ٦١هـ .

بعد صلح الحسن عليه السلام بدأ نوع من العمل شبه سرّي، هدفه إعادة القيادة الاسلامية الى أصحابها الحقيقيين ، إذ كان الامر يتطلب التريث ريثما تنتهي مدة حكم معاوية ، وخلال هذه المدة القصيرة توجهت الجهود البناءة للتمهيد الى المرحلة التالية. (١١)

المرحلة الرابعة : هي التي تحتاج الى ان نقف عندها ولو قليلاً، لأنها هي التي تعيننا في دراسة حياة الامام الصادق عليه السلام . في هذه المرحلة التي استمرت قرابة قرنين ، تواصلت مسيرة الامامة ضمن خطة بعيدة المدى لتغيير المجتمع وفق نظرة الاسلام في جميع المجالات ، بما في ذلك القيادة السياسية . كانت مفعمة بالانتصارات والانتكاسات ، ومقرونة بنجاح باهر في مجال العمل الفكري والعقائدي، وامتزجة بآلوان الاساليب الرائعة في العمل التكتيكي المناسب ، ومزدانة بآسمى وأروع مظاهر الاخلاص والتضحية والتفاني والعظمة الانسانية على الطراز الاسلامي.

هذه المرحلة بدأت من محرم سنة ٦١ هجرية ، بعد استشهاد الامام الحسين بن علي عليهما السلام وبدء امامة علي بن الحسين عليهما السلام . وفي هذه المرحلة نشط الائمة - كما ذكرنا - في الحقل الايديولوجي ومكافحة الانحرافات والتحريفات التي خلقتها مراكز القدرة والاذهان الجاهلة ، الى جانب العمل على المدى البعيد لاقامة حكم اسلامي ينتهج القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ويتمثل نموذج حكومة علي عليه السلام .

واضح أن تنفيذ منهج ثوري أصيل عميق في مجتمع مرّت عليه سنون من الانحراف الفكري والعملي يستدعي تكتيكاً دقيقاً وتخطيطاً أساسياً. فالجتمتع الاسلامي آنذ قد مرّت عليه فترة حكومة معاوية بكل ما فيها من تحدير وتحريف وتزييف وابتعاد عن الروح الرسالية وحرمان من القيادة المبديّة ، مما أدى الى تفاقم خطر الانحراف ، حتى إنّ الأمر آل الى مقتل ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله في كربلاء على مسمع ومرآى من هذا المجتمع المرعوب المشلول المهزوم أمام الارهاب الأموي.

لا بدّ إذن من عمل كبير يعيد الى هذا المجتمع معنوياته المفقودة وشخصيته المسحوقة ، انها لعملية تغيير كبرى يحتاجها هذا المجتمع كي يعود مرة اخرى مؤهلاً لحمل الرسالة والنهوض باعباء المسؤولية الثقيلة . لا بد من ثورة كالتي اعلنها رسول الله في المجتمع الجاهلي، ثم تولّى قيادة هذا المجتمع انطلاقاً من هذه الثورة .

ان إعادة الحياة الثورية وتجديدها عملية لا تقلّ صعوبة وأهمية عن خلق الثورة وإيجادها. عملية التجديد الثوري بحاجة الى ايمان عميق ، وعزم راسخ ، وعقل مدبر، وفكر يقظ وواع وفعل . فمن الذي يحمل عبء هذه المسؤولية ؟

تلك الفئة التي ما استطاعت أن تسير وراء الامام الحسن عليه السلام وما ارتفعت الى مستوى مناصرة الامام الحسين عليه السلام غير قادرة دون شك على عملية الإحياء هذه . والاعتماد على هذه الفئة ليس وراءه الا الفشل والخسران .

إن تجربة "التوايين" ثم قيام المختار و ابراهيم بن مالك خير دليل على ما ذهبنا اليه .

موقف الامام السجاد (عليه السلام)

والامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقف الآن بعدحادثة عاشوراء على مفترق طريقين :

إما ان يعمد الى دفع أصحابه نحو حركة عاطفية هائجة ، ويدخلهم في مغامرة ، لا تلبث شعلتها - بسبب عدم وجود المقومات اللازمة فيهم - أن تخبث و جذوتها أن تنطفئ، وتبقى الساحة بعد ذلك خالية لبنيامية ، يتحكمون في مقدرات الامة فكراً وسياسياً.. أو أن يسيطر على العواطف السطحية والمشاعر الفاترة ، ويعد المقدمات للعملية الكبرى ، المقدمات المتمثلة في الفكر الرائد والطلبة الواعية الصالحة لإعادة الحياة الاسلامية الى المجتمع ، وأن يصون حياته و حياة المجموعة الصالحة لتكون النواة الثورية للتغيير المستقبلي، ويتعد عن أعين بنيامية ، ويواصل نشاطه الدائب على جبهة بناء الفكر وبناء الافراد. وبذلك يقطع شوطاً على طريق الهدف المنشود، ويكون الامام الذي يليه أقرب الى هذا الهدف .

فأي الطريقين يختار؟

لا شك أن الطريق الاول هو طريق التضحية والفداء، لكن القائدالذي يخطط لحركة التاريخ ، ولمدى أبعد بكثير من حياته ، لا يكفي أن يكون مضحياً فقط ، بل لا بد أيضاً أن يكون عميقاً في فكره واسعاً فيصدره ، بعيداً في نظره ، مدبراً وحكيماً في اموره .. وهذه الشروط تفرض على الامام انتخاب الطريق الثاني.

والامام علي بن الحسين عليه السلام اختار الطريق الثاني مع كل ما يتطلبه من صبر ومعاناة وتحمل ومشاق ، وقدم حياته على هذا الطريق (سنة ٩٥ هجرية).

وقد صور الامام الصادق عليه السلام وضع الامام الرابع ودوره الرائد بقوله:

(ارتدّ الناس بعد الحسين عليه السلام الا ثلاثة : ابو خالد الكابلي ، ويحيى بن أم الطويل ، وجبير بن مطعم ، ثم إن الناس لحقوا وكثروا، وكان يحيى بن أم الطويل يدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه. (١٢) (كفرونا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء) وآله ويقول :

هذه الرواية تصوّر حالة المجتمع الاسلامي بعد مقتل الحسين عليه السلام .

إنها حالة الهزيمة النفسية الرهيبة التي عمّت المجتمع الاسلامي ابان وقوع هذه الحادثة . فمأساة كربلاء كانت مؤثراً على هبوط معنويات هذا المجتمع عامة ، حتى شيعة اهل البيت . هؤلاء الشيعة الذين اكتفوا بارتباطهم العاطفي بالانمة ، بينما ركنا عملياً الى الدنيا ومتاعها وبريقها.. ومثل هؤلاء كانوا موجودين على مرّ التاريخ ، وليسوا قليلين حتى يومنا هذا.

فمن بين الآلاف من مدّعي التشييع في زمن الامام السجاد عليه السلام بقي ثلاثة فقط على الطريق .. ثلاثة فقط لم يرعهم الارهاب الأموي ولا بطش النظام الحاكم ، ولم يش عزمهم حبّ السلامة وطلب العافية ، بل ظلّوا ملينّين مقاومين يواصلون طريقهم بعزم وثبات .

هؤلاء لم ينجرفوا مع تيار المجتمع المنجرّ كالرعاع وراء ارادة الحاكم الظالم ، بل كان يقف الواحد منهم وهو يحيى بن ام الطويل فيمسجد المدينة ويخاطب مدّعي الولاء لأهل البيت ، معلناً براءته منهم - كما مرّ - ويستشهد بما قاله ابراهيم عليه السلام واتباعه لمعارضيه. (١٣)) كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء(زمانه :

أراد ابن ام الطويل بتلاوته هذه الآية المباركة أمام مدّعي الولاء لأهل البيت عليهم السلام أن يعلن الانفصال التام بين الجبهتين : جبهة الرساليين المنتزعين ، وجبهة الخلود الى الارض والانحطاط إلى مستوى الأمانى الرخيصة والانشدادات المادية التافهة . وهو انفصال يرافق كل الدعوات الإلهية . والامام الصادق عليه السلام عبّر عن هذا الانفصال بين الجبهتين بقوله : "من لم يكن معنا كان علينا" أي من لم يكن في جبهة التوحيد كان في جبهة الطاغوت ، وليس ثمة منطقة وسط بين الاثنين ، ولا معنى للحياد في هذا الانتماء.

إن يحيى ابن أم الطويل هذا المسلم والموالي الحقيقي لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله بصرخته هذه يعلن الانفصال بين الذين يُرضون أنفسهم بالولاء العاطفي بينما هم قابعون في قوقعة مصالحتهم الشخصية وغارقون في مستنقع ذاتياتهم الضيقة ، وبين اولئك المنتزعين فكراً وعملاً بالامام .

هذا الانفصال يعني - طبعاً - الترفع عن الانجرار وراء الأكثرية الضالّة ، ولا يعني اهمال هؤلاء الضالين . من هنا اتجهت هذه المجموعة الصالحة الى انتشار من له قابلية التحرر من الإصر والأغلال ، وكثرت بالتدريج هذه الفئة المجاهدة الصابرة ، والى هذا يشير الامام الصادق عليه السلام في قوله المذكور آنفاً: "ثم إن الناس لحقوا وكثروا". وبذلك واصل الامام السجاد عليه السلام نشاطه . وكان هذا النشاط وبعض المواقف الاخرى التي سنذكرها مما أدّى الى استشهاده ، واستشهاد بعض المقربين من أتباعه .

لم أر في حياة الامام السجاد عليه السلام ما يدل على مواجهة صريحة مع الجهاز الحاكم ، والحكمة كانت تقتضي ذلك - كما ذكرنا - لأنه لو اتخذ مثل تلك المواقف التي نشاهدها في حياة الامام موسى بن جعفر عليه السلام وبعده من الائمة تجاه حكام عصره لما استطاع أن يحقق ما حققه من دفع عملية التغيير دفعة استطاعت أن توفرّ للامام الباقر عليه السلام فرصة نشاط واسع ، بل لصنفيّ هو والمجموعة الصالحة الملتفة حوله .

في مواقف نادرة نلمس من الامام عليه السلام رأيه الحقيقي من السلطة الحاكمة ، ولكن ليس على مستوى المواجهة ، بل على مستوى تسجيل موقف للتاريخ وليجعل المحيط القريب منه على قدر من العلم بعمله وحركته .

من تلك المواقف ، رسالة تقريع صارخة وجهها الامام عليه السلام الى رجل دين مرتبط بجهاز بني أمية هو "محمد بن شهاب الزهري". ونستطيع أن نفهم من الرسالة أن الامام يخاطب بها الاجيال على مرّالعصور، لا الزهري. لأن الزهري لم يكن بالشخص الذي يستطيع أن يتحرر من الاغلال التي تشدّه الى موائد بني أمية وقصاعهم وهوهم ومناصبهم وجاههم . ولم يستطع بالفعل . لقد قضى عمره في خدمتهم ، ودون كتاباً ، ووضع حديثاً ليتزلف اليهم (١٤)

هذه الرسالة إذن وثيقة توضح موقف الامام من أوضاع زمانه . ونصّها موجود في كتاب "تحف العقول (١٥).

وثمة وثيقة أخرى هي عبارة عن رسالة جوابية وجهها الامام عليه السلام الى عبدالمكك بن مروان بعد ان ارسل الثاني رسالة يعيّر فيها الامام بزواجه من أمته المحررة ، وقصد ابن مروان بذلك أن يبين للامام عليه السلام أنه محيط بكل ما يفعله حتى في اموره الشخصية ، كما اراد أيضا ان يذكر الامام بقربته منه طمعا في استمالته .

والامام عليه السلام في رسالته الجوابية يوضح رأي الاسلام في هذه المسألة ، ويؤكد أن امتياز الايمان والاسلام يلغي كل امتياز آخر . ثم بأسلوب كناية في غاية الروعة يشير الامام الى جاهلية آباء الخليفة ، بل لعله يشير أيضا الى ما عليه الخليفة بالذات من جاهلية إذ يقول له : "فلا لؤم على امرئ مسلم ، إنما اللؤم لؤم الجاهلية " .

وحين قرأ الخليفة الأموي عبارة الامام عليه السلام أدرك معناها تماما ، كما أدرك المعنى ابنه سليمان إذ قال له : "يا أمير المؤمنين لشدّما فخر عليك علي بن الحسين !!".

والخليفة بمحكته السياسية يرد على ابنه بما يوحي أنه أعرف من الابن بعاقبة الاصطدام مع إمام الشيعة فيقول له : "يابني لا تغل ذلكفانها ألسن بني هاشم التي تغلق الصخر وتغرف من بحر ، إن علي بن الحسين يا بني يرتفع من حيث يتصنّع الناس . (١٦)

ونموذج آخر من هذه المواقف ردّ الامام عليه السلام على طلب تقدم به عبدالمكك بن مروان . كان عبدالمكك قد بلغه أن سيف رسول الله صلى الله عليه وآله عند الامام . فبعث اليه من يطلب منه أن يهب السيف للخليفة ، وهدده إن أبى بقطع عطاء بيت المال عنه .

فكتب اليه الامام عليه السلام :

"اما بعد فان الله ضمن للمتقين المخرج من حيث يكرهون ، إن الله لا يحب كل (والرزق من حيث لا يحتسبون ، وقال جلّ ذكره : فانظر آينا أولى بهذه الآية (١٧) (خوان كفور) .

وفي غير هذه المواقف نرى الامام السجاد عليه السلام يتحرّك بهدوء وباستتار في اتجاه تربية الافراد وصنع الشخصية الاسلامية وفق مدرسة أهل البيت ومحاربة الانحرافات و... وبذلك قطع في الواقع الخطوة الاساسية الاولى على طريق تحقيق هدف مدرسة أهل البيت المتمثل بإقامة المجتمع الإسلامي المستظل بحكومة اسلامية صالحة على نموذج حكومة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن ابي طالب عليه السلام . وكما ذكرنا من قبل لم يسلم الامام عليه السلام واتباعه رغم هذا النهج - المسالم على الظاهر - من بطش الجهاز الأمويوتنكيهه . فمن أتباعه من قتل بشكل فظيع ، ومنهم من سجن ، ومنهم تشرّد بعيداً عن الأهل والديار ، والامام عليه السلام نفسه في مرة واحدة على الاقل سيق مقيداً بالاغلال في حالة مؤلمة من المدينة الى الشام ، وتعرض مرات لألوان الأذى والتعذيب . ثم دسّ الخليفة الأموي الوليد بن عبدالمكك له السمّ واستشهد سنة ٩٥ هجرية (١٨).

حياة الامام الباقر عليه السلام

استمرار منطقي حياة الامام السجاد عليه السلام

اصبح اتباع أهل البيت مجموعة متميزة ذات وجود مستقل ،ودعوة أهل البيت التي اعزتها وقفة واحتجبت وراء ستار سميكتسب حادثة كربلاء وما أعقبها من حوادث دموية كوقعة الحرة وثورة التوابين وبسبب بطش الأمويين ، قد اصبح لها وجود منتشر وواضح في كثير من الاقطار الاسلامية خاصة في العراق والحجاز وخراسان ، وأصبح لها "تنظيم" فكري وعملي. وولت تلك الايام التيقال الامام السجاد عليه السلام عنها: إن أتباعه ما كانوا يزيدون فيها على عشرين شخصا. وضحى الامام الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبي صلى الله عليه وآله في المدينة فيلتف حوله جمع غفير من أهل خراسان وغيرها من اصقاع العالم الاسلامي، يساءلونه عن رأيا لاسلام في مختلف شؤون الحياة . ويفد عليه امثال طاووس اليماني وقتادة بن دعامة وأبو حنيفة وآخرون من أئمة المذاهب الفقهية لينتهلوا من علم الامام أو ليحاجوه في أمور مختلفة . وبرز شعراء يدافعون عن مدرسة اهل البيت ، ويُعبّرون عن أهدافها، منهم الكميّ الذي رسم في هاشمياته أروع لوحة فنية في تصوير الولاء الفكري والعاطفي لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله . وتناقلت الألسن هذه الروائع الادبية وحفظتها الصدور.

ومن جهة أخرى فإن خلفاء بني مروان أحسوا خلال هذه الفترة بنوع من الطمأنينة ، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبدالملك بن مروان (ت ٨٦هـ) خلال فترة حكمه التي استمرت عشرين عاماً أن يجمع كل المعارضين . وقد يعود شعور الخلفاء المروانيين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان الى أن الخلافة وصلتهم غيمة باردة ، لا كاء سلافهم الذين كدحوا من أجلها مما أدى الى انشغالهم باللهو والملذات التي تصاحب الشعور بالاقتدار والجاه والجلال .

مهما يكن الأمر فإن حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة اهل البيت قد قلت في هذا العصر ، وأصبح الامام وأتباعه في ماء من تقريماً من مطاردة الجهاز الحاكم .

وكان من الطبيعي أن يقطع الامام خطوة رحبة في ظل هذه الظروف على طريق تحقيق أهداف مدرسة اهل البيت ، ويدفع بالتنشيع نحو مرحلة جديدة . وهذا ما يميّز حياة الامام الباقر عليه السلام .

ويمكن تلخيص حياة الامام الباقر عليه السلام خلال الاعوام التسعة عشر من امامته (٩٥ - ١١٤هـ) بما يلي:

إن أباه الامام السجاد عليه السلام عندما حضرته الوفاة أوصى أن يكون ابنه محمداً إماماً من بعده في حضور سائر ابنائه وعشيرته وسلّمه صندوقاً.. تذكر الروايات أنه مملوء بالعلم .. وتذكر أن فيه سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له : "يا محمد هذا الصندوق فاذهب به الى بيتك. ثم قال : أما إنه لم يكن فيه دينار ولا درهم ، ولكنه كان مملوءاً علماً.(١٩)" لعل هذا الصندوق يرمز الى أن الامام السجاد سلّم ابنه محمداً مسؤولية القيادة الفكرية والعلمية (فالصندوق مملوء بالعلم) وسلّمه مسؤولية القيادة الثورية (سلاح النبي).

ومع بدء الامام وأتباعه بنشاطهم الواسع في بث تعاليم أهل البيت عليهم السلام ، يتسع نطاق انتشار الدعوة ، ويتخذ أبعاداً جديدة تتعدى مناطقها السابقة في المدينة والكوفة ، وتجدها شيعاً في اصقاع بعيدة عن مركز السلطة الأموية ، وخراسان في مقدمة تلك البقاع كما تحدثنا الروايات التاريخية .(٢٠)

إن الواقع الفكري والاجتماعي المزري للناس كان يدفع الامام وأتباعه نحو حركة دائبة لا تعرف الكلل والملل من أجل تغيير هذا الواقع والنهوض بالواجب الإلهي إزاء هذا الانحراف .

إنهم يرون غالبية الناس قد خضعوا للجو الفاسد الذي أشاعه بنو أمية ، ففرقوا الى الأذقان في مستنقع حياة آسنة موبوءة ، حتى أضحوأحكامهم لا يفقهون قولاً ، ولا يصيخون لنصيحة سماعاً "إن دعوانهم لم يستجيبوا لنا". (٢١)

ومن جهة اخرى يرون دراسات الفقه والكلام والحديث والتفسير تنحو منحى استرضاء الطاغوت الأموي وتلبية رغباته . ومن هنا فان كل ابواب عودة الناس الى جادة الصواب كانت موصدة لولا نهوض مدرسة اهل البيت بواجبها "وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا (٢٢)

اتجهت مدرسة أهل البيت فيما اتجهت الى تقريع اولئك الذين باعوا ذمهم من العلماء والشعراء، في محاولة الى ايقاظ ضمائرهم أو ضمائر اتباعهم من عامة الناس.

نرى الامام يقول للكثير من الشعراء مؤنباً:

"امتدحت عبد الملك؟" قال : ما قلت له يا امام الهدى ، وإنما قلت ياأسد، والأسد كلب ، ويا شمس ، والشمس جهاد، ويا بحر، والبحرموات ، ويا حية ، والحية ذؤبية منتنة ، ويا جبل ، وإنما هو حجر أصم. فتبسم الامام وأنشد الكثير بين يديه :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبو ولا أحلام (٢٣) وبهذه الميمية يضع الحد الفاصل بين الاتجاه العلوي والاتجاه الأموي في المكانة والسيرة في صورة فنية رائعة خالدة .

وعكرمة تلميذ ابن عباس المعروف وصاحب المكانة العلمية المرموقة في المجتمع آنذاك، يذهب لمقابلة الامام ، فيؤخذ بهيبة الامام وشخصيته ووقاره ومعنويته وفكره ، فيقول له : "يا بن رسول الله لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره ، فما أدركني مأدركي آنفاً".

فقال له الامام : "إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. (٢٤)

ومن الابعاد الاخرى لنشاط مدرسة أهل البيت في هذه المرحلة سرد ما أحاط بأهل بيت رسول الله وأتباعهم من ظلم واضطهاد وقتل وتشريد وتعذيب في محاولة لاستثارة عواطف الناس الميتة ، وتحريك ضمائرهم الرخوة ، واستنهاض عزائمهم الراكدة ، وتوجيههم وجهة ثورية حركية .

عن المنهال بن عمر قال : كنت جالساً مع محمد بن علي الباقر عليه السلام اذ جاءه رجل فقال له : كيف انتم ؟ فقال الامام الباقر :

أوما آن لكم أن تعلموا كيف نحن ؟ إنما مثلنا في هذه الأمة مثل بني اسرائيل ، كان يذبح أبناءهم وتستحيا نساؤهم ، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحون نساءنا. زعمت العرب أن لهم فضلاً على العجم ، فقالت العجم : وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد منا عربياً. قالوا لهم : صدقتم . وزعمت قريش أن لها فضلاً على غيرها من العرب ، فقالت لهم العرب من غيرهم : وبما ذلك؟ قالوا: كان محمد قريشياً. قالوا لهم : صدقتم . فان كان القوم صدقوا فلنا فضل على الناس لأننا ذرية محمد، وأهل بيته خاصة وعزته ، لا يشركنا

في ذلك غيرنا. فقال له الرجل :والله إني لأحبكم أهل البيت . قال : فاتخذ للبلاء جليبا، فوالله إنه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدو البلاء ثم بكم ، وبنا يبدو الرخاء ثم بكم.(٢٥)

فما إن بدت على الرجل علامات الهياج جرّاء استنارات الامام حتى سارع الامام الى رسم الطريق أمامه . إنه طريق مفروش بالدماء والدموع ، والامام رائد المسيرة على هذا الطريق بصيبه البلاء أو لأقل أن يصيب شيعته .

وفي دائرة أضيق نرى أن علاقة الامام بشيعته تتخذ خصوصيات متميزة ، نراه بين هؤلاء الاتباع كالدماغ المفكر بين اعضاء الجسد الواحد، يغذيهم ويمدهم بالحوية والحركة والنشاط باستمرار.

وتتوفر بايدينا وثائق تبين هذا الارتباط متمثلا باعطاء المفاهيم والتعاليم الصريحة هؤلاء الاتباع ، وتنظيم مترابط محسوب بينهم .

منها وصية الامام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي في اول لقاء له بالامام أن لا يقول لأحد أنه من الكوفة ، وليظهر بمظهر رجل من أهل المدينة . وبذلك يعلم هذا التلميذ الجديد، الذي لمس الامام فيه قدرة على حفظ الاسرار، درس الكتمان .. وهذا التلميذ الكفوء أصبح بعد ذلك صاحب سرّ الامام . ويبلغ به الامر مع الجهاز الحاكم أن يقول عنه النعمان بن بشير:

كنت ملازما لجابر بن يزيد الجعفي، فلما أن كنا بالمدينة ، دخل على أبي جعفر عليه السلام فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حتى وردنا الأخرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلينا الزوال فلما نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم (أسمر) معه كتاب فناوله ، فقيل له ووضعه على عينيه ، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) الى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب . فقال له : متى عهدك بسيدي؟ فقال : الساعة فقال له : قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال : بعد الصلاة . قال : فكف الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتى أتى على آخره ، ثم أمسك الكتاب فما رأته ضاحكا ولا مسرورا، حتى وافى الكوفة .

يقول النعمان بن بشير: فلما وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلما أصبحت أتيت جابر الجعفي إعظاما له فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبية (كما يفعل الجنان) وهو يقول : أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير ماءمور، وأبياتاً من نحو هذا فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً، ولم أقل له ، وأقبلت أبكي لما رأته ، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والناس ، وجاء حتى دخل الرحبة ، وأقبل يدور مع الصبيان ، والناس يقولون : جنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتى ورد كتاب هشام بن عبد الملك الى وإليه أن انظر رجلاً يقال له : جابر بن يزيد الجعفي فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه . فالتفت الى جلسائه فقال لهم : من جابر بن يزيد الجعفي؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث ، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم . قال : فاءشرف عليه فاذا هو مع الصبيان يلعب على القصب . فقال : الحمد لله الذي عافاني من قتله.(٢٦)

هذا نموذجٌ من نماذج الارتباط بين الامام وخاصة أتباعه ، يوضّح دقّة التنظيم والارتباط ، ويبين كذلك نموذجاً لموقف السلطة الحاكمة من هؤلاء الاتباع ، ويؤكد أن الجهاز الحاكم لم يكن غافلاً تماماً عن علاقة الامام باءتباعه المقربين ، بل كان يراقب هذه العلاقات ويحاول اكتشافها ومجابتها(٢٧)

وبالتدرج يبرز جانب المجابهة في حياة الامام الباقر عليه السلام وفي حياة الشيعة ليسجل فصلاً آخر في حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام .

النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا وهكذا الروايات الحديثة لا تتحدث بصراحة عن حركة مقاومة سياسية حادة ينهض بها الامام . وهذا يعود الى عوامل كثيرة منها جوّ البطش والتكثير المهيمن على المجتمع مما يفرض عنصر التقيّة بين اتباع الامام الذين هم المطلعون الوحيدون على حياة الامام السياسية .. ولكن ردود الفعل المتشدّدة التي يبديها العدو تبيّن عمق العمل الجهادي . فحين يتخذ جهاز حاكم مقنن كجهاز عبدالملك بن مروان ، الذي يعتبر اقوى حاكم أموي، ضد الامام الباقر عليه السلام كل أسباب الشدّة والحدة ، فإن ذلك يدل دون شك على إحساس الخليفة بالمخاطر التي تواجهه جراء حركة الامام وأتباعه . لو كان الامام منهمكاً فقط بنشاط علمي ، لا ببناء فكري وتنظيمي ، فان الجهاز الحاكم لم يكن من مصلحته أن يتشدّد مع الامام ، لأن ذلك يدفع بالامام وبأتباعه الى موقف ساخط متشدّد كالذي اتخذه الناصر العلوي شهيد فخ الحسين بن علي من السلطة .

باختصار ، موقف السلطة المتشدّد من الامام الباقر عليه السلام يمكن فهمه على أنه رد فعل لما كان يمارسه الامام من عمل معارض للسلطة .

من الأحداث الهامة في اواخر حياة الامام الباقر عليه السلام استدعاء الامام الى الشام عاصمة الخلافة الاموية . فالخليفة الاموي أراد أن يستوثق من موقف الامام تجاه الجهاز الحاكم فامر باعتقاله وارساله مخفوراً الى الشام . (وفي بعض الروايات أن الحكم هذا شمل ابنه الشاب أيضاً جعفر الصادق .

يؤتى بالامام الى قصر الخليفة . وهشام أملي على حاشيته طريقة مواجهة الامام لدى وروده . تقرر أن يتدّى الخليفة ثم تليه الحاشية بإلقاء سيول التهم على الامام ، وكان يستهدف في ذلك امرين : اولهما إضعاف معنويات الامام وخلق حالة من الانهيار النفسي فيه . والثاني : محاولة إيدانة الامام في مجلس يضمّ زعمي الجبهتين (جبهة الخلافة وجبهة الامامة) ، ثم نقل هذه الادانة عن طريق ابواق البلاط كالمخطباء ووعاظ السلاطين والجواسيس وبذلك يسجل لنفسه انتصاراً على خصمه .

يدخل الامام مجلس الخليفة ، وخلاف ما اعتاده الداخلون من السلام على الخليفة بإمرة المؤمنين ، يتوجه إلى كل الحاضرين ، ويشير اليهم جميعاً ويقول : السلام عليكم .. ودون أن ينتظر الاذن بالجلوس يأخذ مكانه في المجلس . وهذا الموقف من الامام أضرم نار الحسد والحقد في قلب هشام .. وبدأ هشام على الفور يقول : يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شقّ عصا المسلمين ، ودعا الى نفسه ، وزعم أنه الامام سفها وقلة علم ، وجعل يويّخه (٢٨) .

وبعد هشام أخذ أفراد بطانته يرددون مثل هذه التهم والتوبيخ .. والامام ساكت في كل هذه المدّة ومطرق بوقار ينتظر فرصة الاجابة .. وحين افرغت البطانة ما في كنانتها وخيم السكوت على المجلس ، نهض الامام وتوجه الى الحاضرين ، وبعد أن حمد الله واثى عليه وصلى على نبيه ، خاطب المجلس بعبارات قصيرة قارعة بين تفاهة هذه البطانة وانقيادها البهيمي كما بينّ فيها مكانته ومكانة أهل البيت وفق معايير اسلامية ، واستخف بكل ما يحيط بالخليفة وحاشيته من هيل وهيلمان ومكانة وسلطان ، فقال :

"ايها الناس ! اين تذهبون ؟ واين يراى بكم ؟ بنا هدى الله أولكم ، وبنا يخنم آخركم ، فان يكن لكم ملك معجل ، فإن لنا ملكاً مؤجلاً ، وليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة . يقول الله عزّ وجل : والعاقبة للمتقين (٢٩) .

عبارات تظلم وتهكم وتبشير وتهديد وإثبات وردّ في جمل موجزة ذات وقع مثير تفرض على سامعها الايمان بحقانية قائلها.. ولم يكن أمام هشام سبيل سوى الامر بسجن الامام .

الامام في سجنه واصل عمله التغييرى فاءثر على من معه فيالسجن . بلغ الامر هشاما فكبر عليه أن يرى حدوث مثل ذلك فيعاصمته المحصنة من التاثير العلوي. فامر أن يؤخذ السجين ومن معه على مركب سريع (البريد) ويُرسل الى المدينة حيث مسكنه ومحل إقامته ، وأمر أن لا يتعامل أحد في الطريق مع هذه القافلة المغضوب عليها ولا يزودها بماء أو طعام. (٣٠)

موت ثلاثة أيام من السير المتواصل انتهى خلالها ما في القافلة من ماء وطعام . ووصلوا "مدين" . وأغلق اهل المدينة حسب ما لديهم من أوامر ابواب مدينتهم ، وأبوا أن يبيعوا متاعا. اشتد على أتباع الامام الجوع والعطش . صعد الامام على مرتفع يطل على المدينة ونادى بآعلى صوته :

بقية الله خير (يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله . يقول الله : .) لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ

يقول الراوي: وكان بين اهل المدينة شيخ كبير فاءتاهم فقال : يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام . والله لئن لم تخرجوا الى هذاالرجل بالاسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقونيوأطيعوني.. فاني لكم ناصح.

استجاب اهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا الى أبيجعفر واصحابه الاسواق. (٣١)

وآخر فصل في هذه الرواية يبين أيضاً بطش الخليفة العباسيو تخرجه . فبعد أن فتح اهل المدينة أبوابها للامام وصحبه ، كتب بجميع ذلك الى هشام . فكتب هشام إلى عامله على مدين يأمره بآءن ياءخذالشيخ فيقتله رحمة الله عليه وصلواته. (٣٢)

ومع كل ذلك، يتجنب الامام أيّ مواجهة حادة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم . فلا يعمد الى سيف ، ولا يسمح للأيدي المتسرعة الى السلاح أن تشهره ، ويوجهها توجيهاً حكيماً، وسيف اللسان أيضاً لا يشهره إذا لم يتطلب عمله التغييرى الاساسى الجذري ذلك. ولايسمح لأخيه زيد، الذي بلغ به الغضب مبلغه ونارت عواطفه أيماثورة ، أن يخرج (يشور) بل يركز نشاطه العام على التوجيه الثقافىوالفكرى.. وهو بناء اساس ايدىولوجى في اطار مراعاة التقية السياسية .

ولكن هذا الاسلوب لم يكن يمنع الامام - كما اشرنا - من توضيح "حركة الامامة" لأتباعه الخالص . وإذكاه أهل الشيعة الكبير، وهو إقامة النظام السياسى بمعناه الصحيح العلوي في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحيانا الى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطريق . والتلويح بمستقبل مشرق هو أحد من السبل التى مارسها الامام الباقر عليه السلام مع أتباعه . وهو يشير أيضاً الى تقويم الامام عليه السلام للمرحلة التى يعيشها من الحركة .

يقول الحكم بن عيينة : بينا أنا مع أبى جعفر عليه السلام والبيت غاص بآءهله إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة (عكازة) له حتى وقف على باب البيت فقال : السلام عليك يابن رسول الله ورحمة الله وبركاته . ثم سكت فقال ابو جعفر : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال : السلام عليكم ، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً، وردّوا عليه السلام . ثم أقبل بوجهه على الامام وقال : يابن رسول الله أدنى منك جعلني الله فداك. فولله إنيألأحبكم وأحب من يحبكم ، ووالله ما

أحبكم وأحب من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه ، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لو تر كان بيني وبينه . والله إني لأحل حلالكم وأحرم حرامكم ، وانتظروا أمركم ، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال الامام : إِيَّايَ، حتى أفضده إلى جنبه ثم قال :

"أيها الشيخ ، إن أبي علي بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل الذي ساءلني عنه فقال له أبي عليه السلام : إن تمت ترد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى علي بن الحسين وعلي بن الحسين ، وينلج قبلك، ويبرد فؤادك، وتقر عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين ... وإن تعش ترى ما يقر الله به عينك، وتكون معنا في السنم الاعلى ." قال الشيخ وهو مندهش من عظمة البشرية : كيف يا أبا جعفر؟ فإعاد عليه الكلام ، فقال الشيخ :الله أكبر يا أبا جعفر، إن أنا مت أرد على رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى علي بن الحسين وعلي بن الحسين وتقر عيني وينلج قبلي ويبرد فؤادي وأستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا، وإن أعش أرى ما يقر الله به عيني، فأكون معكم في السنم الاعلى ؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتى لصق بالأرض . وأقبل أهل البيت ينتحبون لما يرون من حال الشيخ . ثم رفع الشيخ رأسه وطلب من الامام ان يناوله يده فقبلها ووضعها على عينه وخده ، ثم ضمها الى صدره ، وقام فودّع وخرج والامام ينظر اليه ويقول : "من أحب أن ينظر الى رجل من أهل الجنة فلينظر الى هذا(٣٣).

مثل هذه التصريحات ، تذكى روح الامل في قلوب تعيش جواً الاضطهاد والكبت ، فتكسيها زهماً ودفعا نحو الهدف المنشود المتمثل في إقامة النظام الاسلامي العادل .

تسعة عشر عاماً من إمامة الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح .. تسعة عشر عاماً من التعليم الايديولوجي، والبناء، والتكثيف النضالي، والتنظيم ، وصيانة وجهة الحركة ، والتقوية ، وإذكاء روح الأمل .. تسعة عشر عاماً من مسير شائك وعمر يتطلب كثيراً من الجِدِّ والجهد. وحين أشرفت هذه الاعوام على الانتهاء وأوشكت شمس عمره المبارك على المغيب ، تنفس اعداؤه الصعداء، لأنهم بذهاب هذا القائد الموجه سوف يتخلصون من مصدر إثارة طالما قضّ مضاجعهم وسرق النوم من عيونهم . لكن الامام خيب آمالهم وفوت عليهم هذه الفرصة ، حين جعل من وفاته مصدر عطاء، ومنطلق إثارة ، ووسيلة توعية مستمرة ! لقد وجه ولده الصادق عليه السلام في اللحظات الاخيرة من حياته توجيهاً يمثل نموذجاً رائعاً من نماذج التقية التي مارسها الامام الباقر عليه السلام والاسلوب الذي استعمله في مرحلته الزمنية الخاصة . في الرواية عن ابي عبدالله الصادق عليه السلام قال : "قال لي أبي: يا جعفر أوقف ليمن مالي كذا وكذا النوادر تندبني(٣٤) عشر سنين بمعنى أيام منى .(٣٥)

وهذه الرواية لم يقف عندها من بحث في حياة الامام الباقر وغفلوا عما فيها من دلالات كبيرة . لقد خلف الامام (٨٠٠) درهم ، وأوصى أن يخص جزء منها لمن يندبه في منى .. وندب الامام في منى له معنى كبير . إنه عملية إحياء ذلك المصدر الذي كان يشع دائماً بالتوعية والإثارة وخلق روح الحماس والمقاومة .

واختيار منى بالذات يعني مواصلة العمل في وسط تمرکز الوافدين من كل أرجاء العالم الاسلامي، خلال فترة الاستقرار الوحيدة فيموسم الحج . فكل مناسك الحج يمرّ بها الحاج وهو في حركة دائبة مستمرة ، الا في منى ، حيث يبني الليلتين او الثلاث ، فيتوفر لديه الوقت الكافي لكي يسمع ويطلع . وندب الامام في هذا المكان سينتير التساؤل عن شخصية هذا المتوفى ، من هو؟ فيحصلون على الجواب من أهل المدينة الذين عاصروه . انه من أبناء رسول الله ، واستاذ الفقهاء والمحدثين . ولماذا يندب في هذا المكان ؟ الم يكن موته طبيعياً؟ من الذي قتله أو سمّه ؟ هل كان يشكل خطراً على الجهاز الأموي؟ و.. و.. عشرات الاسئلة كانت تثار حين يندب

الامام في هذا المكان . ثم يحصل السائلون على الاجابة .. وتنتشر الاخبار في اطراف البلاد وَاكتافها بعد عودة الحجيج الى اوطانهم . وكان هناك في موسم الحج من ياتي من الكوفة والمدينة ليجيب عن هذه التساؤلات مغتنماً فرصة تجمع المسلمين ، وليست روح التشيع من خلال قناة إعلامية آنذاك.

هكذا عاش الامام ، وهكذا خطط لما بعد وفاته ، فسلام عليه يوم ولد ويوم جاهد ويوم استشهد في سبيل الله ويوم يبعث حيا .

توفي الامام الباقر عليه السلام وهو في السابعة والخمسين من عمره ، على عهد هشام بن عبد الملك ، وهو من اكثر ملوك بني أمية اقتداراً . ورغم ما كانت تحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب ، فإن ذلك لم يصر فيها عن التأمر على القلب النابض للشيعة ، أي الامام الباقر ، فاء وعز هشام الى عملائه أن يدسوا السم للإمام ، وحقق بذلك انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه .

(١) - هذا المضمون نقل في ثماني عبارات اخرى ، دون ذكر السند اصلاً ، وثمة رواية أخرى فيها سلسلة رواة غير ان الراوي الاصيلي غير معلوم لانه لا يوجد بين الرواة من كان حاضراً في مجلس المنصور . وتوجد رواية واحدة فقط ينقلها الراوي عن الامام الصادق عليه السلام مباشرة بسند غير موثوق به . (راجع : البحار ، ج ٤٧ ص ١٨٢ رواية ٢٨ باب ٦ ، وقاموس الرجال ج ٩ ص ٥٠٩ .

(٢) حين مات المنصور كان في خزائنه من الاموال النقدية ستمائة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار (عصر الازدهار ص ٦٠ - ٧٠ .

(٣) هو ثاني وآخر وزراء المنصور . كان رجلاً ذا دهاء وتدبير وله هيبه وفصاحة .. بقي في منصب الوزارة حتى آخر حياة المنصور (سنة ١٥٨ هـ) . ويكفيه دليلاً على وفائه للمنصور ولبني العباس أنه أنقذ الخلافة العباسية من انفجار كاد يقضي عليها اثناء احتدام الخلاف بين مدعي وراثته المنصور .

فقد زور وصية على لسان المنصور في آخر لحظات حياته تاءمر جميع حكام الولايات بالبيعة للمهدي ابن المنصور ، فما كان من طلاب الخلافة الا الاستسلام . (راجع : عصر الازدهار ص ٥٩ - ٧٠ .

(٤) فيليب حتي ، تاريخ العرب .

(٥) بطور شفسكي ، الاسلام في ايران .

(٦) من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله حتى وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام .

(٧) الحديد : ٢٥ .

(٨) نهج البلاغة خ ١٦، لما بويع في المدينة ، وفيها يخبر الناس بعلمه بما تؤول اليه احوالهم.

(٩) من تلك الخصائص تشريع النظام وفق المتطلبات الاساسية الثابتة للانسان ، والمرونة التي تسمح باستقطاب العناصر العلمية والمنطقية من كل مكان ومن كل نوع . (مع الاحتفاظ بالاتجاه المبدئي للرسالة وبشرط الانسجام مع نظرة الرسالة الى الكون والحياة.

(١٠) الرسالة ٦٢ من نهج البلاغة .

(١١) شرحت بالتفصيل طبيعة هذه الفترة في محاضرات متعددة مستنداً الى الوثائق التاريخية المتوفرة .

(١٢) بحار الانوار، ط : الاسلامية ، ج ٤٦ ص ١٤٤ . وفي رواية اخرى اضيف جابر بن عبدالله الانصاري الى هؤلاء الثلاثة . وفي رواية اخرى بدل جابر بن عبدالله ورد ذكر سعيد بن المسيب المخزومي . وفي رواية اخرى اضيف الى هؤلاء جميعا سعيد بن جبير ، وبدلاً من جبير بن مطعم ذكر اسم محمد بن جبير بن مطعم (رجال الكشي، ط : مصطفى، ص ١١٥)، ويرى العالم الرجالي المعاصر الحق الشوشري أن اسم جبير بن مطعم في هذا الحديث محوَّف من حكيم بن جبير بن مطعم : (قاموس الرجال ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ .

(١٣) المتحنة : ٤

(١٤) راجع : أجوبة مسائل جار الله ، للسيد شرف الدين العاملي، ص ٥٩ و ٦٠ ، وكذلك: دراسات فيالكافي والصحيح ، ص ٢٦١ .

(١٥) تحف العقول عن آل الرسول ٢٧٢ - ٢٧٧ ط : جماعة المدرسين - قم .

(١٦) بحار الانوار ج ٤٦ ص ١٦٥ ، ط : بيروت ، نقلاً عن الكافي ج ٥ ص ٣٤٤ .

(١٧) المصدر نفسه ص ٩٥ .

(١٨) حياة الامام السجاد عليه السلام باعادها الجهادية وما اكتنفها من احداث من اروع مقاطع حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام وتحتاج الى مقال مستقل .

(١٩) بحار الانوار ٤٦ : ٢٢٩ باب ٤ . عن البصائر ٤ : ٤٤ .

(٢٠) من ذلك رواية ابي حمزة الثمالي يقول : "حتى أقبل ابو جعفر عليه السلام وحوله اهل خراسان وغيرهم يساءلوناه عن مناسك الحج " (بحار الانوار ٤٦ : ٣٥٧ ط : بيروت) ، وانظر حديث أحد علماء خراسان مع عمر بن عبدالعزيز، وفيه أكثر من عبرة ودلالة . (بحار الانوار ٤٦ : ٣٦٦ .

(٢١) من حديث للامام الباقر عليه السلام في ارشاد الشيخ المفيد : ٢٨٤ ، وبحار الانوار ٤٦ : ٢٨٨ .

(٢٢) بحار الأنوار ٤٦ : ٢٨٨ .

(٢٣) المناقب ٤ : ٢٠٧ وهذه الميمية من هاشمياته وفيها يخاطب أئمة اهل البيت عليهم السلام فيقول : ساسة لا كمن يرى رعية الناس سواء ورعية الانعام وهو بيت له دلالته الكبيرة .

(٢٤) بحار الانوار ٤٦ : ٢٥٨ .

(٢٥) بحار الانوار ٤٦ : ٣٦٠ رواية ١ - باب ١٠٠ نقلاً عن امالي الطوسي : ٩٥ .

(٢٦) بحار الانوار ٤٦ : ٢٨٢ - ٢٨٣ نقلاً عن الكافي ١ : ٣٩٦ .

(٢٧) يؤيد هذه الحقيقة ، اضافة الى قضية جابر ونظائرها، رواية عبدالله بن معاوية الذي يسلم الامام الباقر عليه السلام رسالة تهديد من حاكم المدينة (بحار الانوار ٤٦ : ٢٤٦ . الباب ١٦ الرواية ٣٤ .

(٢٨) بحار الانوار ٤٦ : ٢٦٣ رواية ٦٣ باب ٥ .

(٢٩) بحار الانوار ٤٦ : ٢٦٤ الباب ١٦ الرواية ٦٣ .

(٣٠) ويروى أنه أشاع بين اهالي المدن الواقعة على الطريق أن محمد بن علي وجعفر بن محمد تنصروا وخرجوا من الاسلام (بحار الانوار ٤٦ : ٣٠٦) . وشيبه ذلك ما وقع لمولانا وهو من زعماء الحركة الاسلامية المناهضة للاستعمار البريطاني في منتصف القرن التاسع عشر . فقد أشاعوا عنه أنه وهابي . وكانت هذه التهمة كافية لاسقاط هذا الرجل المناضل من أعين الناس البسطاء السذج . الوهابية كانت مقرونة في اذهان الناس بتلك العصابة التي روّعت حجاج بيت الله واستباححت دماء المسلمين في الحجاز .. فكانت كريمة لديهم ومقيبة . وتهمة الوهابية الصقت بهذا الرجل فتقبلتها الاذهان الساذجة دون أن تسأل عن مبرر هذه التهمة وعن امكان أن يكون رجل مناضل مثل مولانا معتنقاً لفكرة جاء بها الانجليز الى العالم الاسلامي (راجع كتاب : المسلمون في حركة تحوير الهند (بالفارسية) ط آسيا) حين ارى موقف الناس من الامام الباقر عليه السلام بعد اتهمته بالنصرانية في ذلكالزمان وموقفهم من مولانا بعد اتهمته بالوهابية في القرن الماضي اتعجب من وحدة المواقف ، واردّ ما = يقوله الشاعر العربي : الناس كالناس والايام واحدة ..

(٣١) بحار الأنوار ٤٦ : ٢٦٤ .

(٣٢) بحار الانوار ٤٦ : ٣١٣ .

(٣٣) بحار الانوار ٤٦ : ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٣٤) هكذا في الأصل ، ولعل الصحيح : لنوادب يندبني .

(٣٥) بحار الانوار ٤٦ : ٢٢٠ .

قيادة الامام الصادق عليه السلام

وتحمّل الامام الصادق عليه السلام مسؤولية مواصلة المسيرة فيظروف معقّدة وصعبة للغاية .

فالانتفاضات تنشب في طول البلاد وعرضها، والولاة منهمكون بجمع الأموال والثروات الطائلة^(٣٦) ، والطاعون والقحط يضرب مناطق واسعة منها خراسان والعراق ، والجهاز الحاكم يبطش دون رحمة ، ويخلق حالة من الذلّ والخنوع بين الناس . والمنشغلون بالعلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير لم يكن خطرهم غالباً يقلّ عن خطر الساسة والحكّام ، وهم الذين يُفترض بهم أن يكونوا ملاذّ الناس وملجأهم ، كثير من هؤلاء كانوا يدبّجون الفتاوى ليرضوا السلطان والولاة^(٣٧) . وكثيرٌ منهم كانوا يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بتوافه الأمور، ويثيرون النزاعات الكلامية الفارغة التي لا تمتّ بصلة الى الاسلام والى معاناة الجماهير .

مهمة الامام الصادق عليه السلام في هذه الظروف المظلمة هي ما ذكرناه بشان مهمة الامامة ، وتتلخص في طرح الفكر الاسلاميالصحيح ، أي تبيين الاسلام كما جاء في القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله مع مكافحة كل الانحرافات والتشويهات الجاهلة والمعرضة ، وكذلك التخطيط لإقامة نظام العدالة الاسلامية ، وصيانة هذا النظام في حالة إقامته .

كلا المهمتين : المهمة الفكرية والمهمة السياسية ، تشكّلان خطراً كبيراً على النظام الحاكم . ليست المهمة السياسية وحدها تنير سخط السلطة ، فالمهمة الفكرية أيضاً تلغي تلك الافكار والمفاهيم المنحرفة التي قدمها السلطان ووعاظه باسم الدين الى المجتمع .^(٣٨) من هنا فإن العملية الفكرية لها الاولوية ، لأنها تقضي على الزيف الديني الذي يستند اليه الجهاز الحاكم في مواصلة ظلمه . من جهة اخرى فإن الاوضاع السائدة مستعدة للفكر الشيوعي الثوري، والحرب والفقروالاستبداد عوامل تغذي روح الثورة ، أضف الى ذلك عامل الاجواء التي وفرها نشاط الامام الباقر عليه السلام في المناطق القريبة والنائية .

ان الاستراتيجية العامة للامامة هي النهوض بثورة توحيدية علوية . ومتطلّباتها هي :

أولاً: إيجاد مجموعة تحمل فكر الامامة وتهضمه ، وتتطلع بشوق الى تطبيقه .

وثانياً: إيجاد مجموعة منظمّة مجاهدة مضحية .

وهذه المتطلّبات تستلزم بدورها نشر الدعوة في جميع أرجاء العالم ، وإعداد الارضية النفسية لتقبّل الفكر الاسلامي الثائر في جميع الاقطار، وتستلزم أيضاً دعوة أخرى لإعداد افراد مضحين متفانين يشكلون التنظيم السريّ للدعوة .

وهذا هو سرّ صعوبة الدعوة على طريق الامامة الحقّة . فالدعوة الرسالية التي تستهدف القضاء على الطاغوت ، وعلى التفرعن والتجبر والعدوان والظلم في المجتمع ، وتلتزم بالمعايير الاسلامية ، لا بدّ أن تستند الى ارادة الجماهير وقوتها وإيمانها ونضجها. خلافاً لتلكالدعوات التي ترفع شعار محاربة الطغاة ، وهي تمارس في الوقت نفسه أعمال الطغاة والظلمة في حركتها، دون أن تتقيّد بمبادئ أخلاقية واجتماعية . فمثل هذه الدعوات لا تواجه صعوبات الدعوات الرسالية الهادفة ، وهذا هو سرّ عدم تحقق أهداف حركة الامامة على المدى العاجل ، وهو أيضاً سرّ الانتصار السريع للحركات الموازية لحركة الامامة (مثل حركة العباسيين) .

الظروف المساعدة والارضية المناسبة التي وفّرها نشاط الامام السابق - الباقر عليه السلام - أدّت الى أن يظهر الامام الصادق عليه السلام - في جوّ العذاب الطويل الذي عانى منه الشيعة - بمظهر الفجر الصادق الذي ينتظره اتباع أهل البيت في سالف أيامهم . والامام الباقر عليه السلام ذكر بالاشارة والتصريح ما يركز هذا المفهوم .

عن جابر بن يزيد الجعفي: "سئل الامام الباقر عليه السلام عن القائم فضرب يده على ابي عبدالله عليه السلام وقال : هذا والله ولدي قائم آل بيت محمد صلّى الله عليه وآله(٣٩)." .

والقائم هنا طبعاً غير قائم آل محمد في آخر الزمان ، وهو المهدي عليه السلام الذي تواترت الروايات لدى كل المسلمين أنه يظهر في آخر الزمان ، وأنه الخليفة الثاني عشر من خلفاء رسول الله . القائم هنا معناه اللغوي ينطبق على كل من ينهض بوجه الظلم والاستبداد، وهو اصطلاح معروف في مدرسة أهل البيت ، ولا يعني ذلك أن يكون القائم بالسيف بالضرورة . بل إنه يقوم بهجوم تقبيل خطير ، سواء في أسلوب النشاط الفكري او التنظيمي او باعية صورة أخرى تستهدف مقارعة الظالمين ومهاجرتهم . فالامام الباقر عليه السلام يركّز هنا على مفهوم نهوض الامام الصادق عليه السلام بمسؤولية كبيرة تجاه السلطة القائمة ، ولا يركّز على النتيجة .. بل في رواية اخرى يتحدث بلغة تكاد تكون يائسة من امكان انتصار حركة الامامة على الوضع السياسي القائم .

ومن الروايات التي يركّز فيها الامام الباقر عليه السلام على الدور الذي سينهض به الامام الصادق عليه السلام ما رواه ابو الصباح الكناني قال : "نظر أبو جعفر الى ابنه أبي عبدالله فقال : ترى هذا؟ هذا ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في من الذين قال الله تعالى: (الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)(٤٠)" .

ولعل تصريحات الامام هذه هي التي أشاعت فكرة قيام الامام الصادق وخلافته بين الشيعة ، وجعلت اصحاب الباقر والصادق عليهما السلام يتقربون ساعة الصفر بين آونة وأخرى .

في رجال الشيخ الكشي رواية يمكن أن نفهم منها هذه الحالة السائدة بين اتباع أهل البيت آنذاك:

روى ابن مسكان عن زرارة ، انه ساءل ابا عبدالله عليه السلام عن رجل من اصحابنا محتفٍ من غرامة . فقال : اصلحك الله ، ان رجلاً من اصحابنا كان محتفياً من غرامة ، فان كان هذا الامر قريباً صبر حتى يخرج مع القائم ، وان كان فيه تاءخير صالح غرامة؟ فقال له ابو عبدالله عليه السلام : يكون ، فقال زرارة : يكون الى سنة ؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام : يكون إن شاء الله ، فقال زرارة : يكون الى سنتين ؟ فقال ابو عبدالله عليه السلام : يكون إن شاء الله ، فخرج زرارة فوطن نفسه على ان يكون الى سنتين فلم يكن ، فقال : ما كنت ارى جعفرأ الا اعلم مما هو(٤١)" .

وعبارة "هذا الامر" في عرف اتباع اهل البيت كناية عن المستقبل الموعود لهم ، أي استلام زمام الحكم أو القيام بما يقربهم من ذلك كالثورة المسلّحة مثلاً . والقائم هو الذي يقود تلك العملية .

وفي رواية اخرى يذكر هشام بن سالم ، وهو أيضاً من وجوه الشيعة المعروفة ، أن زرارة قال له : لا ترى على احوالها غير جعفر، قال : فلما توفي ابو عبدالله عليه السلام اتبته فقلت له : تذكر الحديث الذي حدثني به ؟ وذكرته له، وكنت اخاف ان يجحدني ، فقال : اني والله ما كنت قلت ذلك الا برأى(٤٢)" .

من مجموع ما تقدم نفهم أن الامام الصادق عليه السلام كان في نظريه وفي نظر الشيعة مظهر آمال الامامة والتشيع . وكأهـن سلسلة الامامة قد ادخرته ليجسد مساعي الامام السجاد والامام الباقرعليهما السلام . كآهـن هو الذي يجب أن يعيد بناء الحكومة العلوية والنظام التوحيدي، يجب أن ينهض نهضة اسلامية أخرى . الامامان السابقان طويا المراحل الصعبة الشاقة لهذا الطريق اللآحب ، وعليه أن يقطع المرحلة الاخيرة ، والظروف - كما ذكرنا - قد تهيأت ، والامام استثمر هذه الظروف لينهض برسآلته الجسيمة .

منذ بداية استلام المسؤولية حتى الوفاة ، قضى ٣٣ عاماً في جهادمتواصل ، وخلال هذه الاعوام كانت الظروف في مدّ وجزر، مرّة تتجه لصالح مدرسة اهل البيت ، ومرّة اخرى تعاكسها، مرّة تبعث على التفاؤل وعلى أن النصر قريب ، ومرّة اخرى تشتدّ الضغوط وتحتنق الانفاس ، فيخيّل الى أصحاب الامام أن كل الآمال قد تبدّدت .والامام الصادق عليه السلام في كل هذه الاحوال ماسك بدقّة القيادة بعزم وتصميم ، يجتاز بالسفينة عبر هذه الامواج المتلاطمة المزروجة بالآمل والياءس ، لا يفكر الا بما يجب قطعه في المستقبل من أشواط ،باعثاً الجد والنشاط والايمان في اتباعه للوصول الى ساحل النجاة .

ويلزمنآ هنا أن نشير الى ظاهرة مؤسفة تواجه كل الباحثين فيحياة الامام الصادق عليه السلام ، وهي الغموض الذي يكتنف السنين الاولى لبيدايات إمامة الصادق عليه السلام التي اقرنت بآءاخر أيام بني أمية . كانت حياة صاحبة متلاطمة مليئة بالحوادث الجسام ، يمكن أن نفهم بعض مآلامها من خلال مئات الروايات . غير أن المؤرخين والمحدثين لم يعرضوا لنا هذه الفترة بشكل مرتّب منسجم مترابط ، ولابدّ للباحث أن يعتمد على القرائن ، وأن يلاحظ التيارات العامة في ذلك الزمان ، ويقرون كل رواية بما حصل عليه من معلومات مسبقة ، ليفهم محتوى الرواية وتفصيلها .

ولعلّ أحد أسباب هذا الابهام يكمن في سرية حركة الامام وأتباعه .. فالتنظيم السري القائم على أسس صحيحة يجب أن تبقى المعلومات عنه سرية محفية ، وأن لا يطّلع عليها من هو خارج التنظيم .ولا تنتشر هذه المعلومات الا بعد أن تحقق الحركة انتصارها . ومن هنا تتوفر لدينا معلومات وافية عن تفاصيل الاتصالات السرية فيحركة العباسيين ، لأن حركتهم انتصرت . ولا شكّ أن حركة أهل البيت لو قدّر لها أن تنتصر وتستلم زمام الامور لا طّلعنا اليوم على أسرار تنظيمها الواسع .

وثمة سبب آخر يمكن أن يكون عاملاً في هذا الغموض ، هو أن المؤرخين كانوا يدوّنون عادة ما يرضى السلطان ، ولذلك نرى فيكتبهم تفاصيل حياة الخلفاء وهوهم ولعبهم وسهراتهم ومجالس طربهم ، بينما لا نرى شيئاً يؤبه له بشآءن النآثرين والمظلومين والمسحوقين ، لأن مثل هذه المعلومات تحتاج من الباحث أن يتحرّى ويبحث ويحاطر، بينما حياة الخلفاء مادة جاهزة ، وغنيمة باردة تكسب الرضا وتستدر العطاء .

والمؤرّخون الخاضعون للخلافة العباسية استمروا يكتبون على هذاالنوال مدة خمسمائة سنة بعد حياة الامام الصادق عليه السلام ، ومن هنا لا يمكن أن نتوقع العثور على شيء معتدّ به من المعلومات عن حياة الامام الصادق عليه السلام أو أي إمام من أئمة الشيعة في مثل هذه المصادر .

الطريق الوحيد الذي يستطيع أن يهدينا الى الخط العام لحياة الامام الصادق عليه السلام هو اكتشاف المعالم الهامة لحياة الامام من خلال الاصول العامة لفكر الامام وأخلاقه . ثم نبحث في القرائن والأدلة المنتشرة التاريخية والقرائن الاخرى غير التاريخية لتتوصل الى التفاصيل .

معالم حياة الامام الصادق عليه السلام

والمعالم الهامة البارزة في حياة الامام الصادق عليه السلام وجدتها من منظار بحثنا تتلخص بما يلي:

١ - تبيين مساءلة الامامة والدعوة إليها.

٢ - بيان الاحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله .

٣ - اقامة تنظيم سرّي ايديولوجي - سياسي.

وطريقة بحثنا أن ندرس كل واحد من هذه المعالم ، ونضع في النهاية فهرساً لنشاطات الامام عليه السلام ، وأن يكون ذلك قدر المستطاع بأسلوب المؤرخين لا بأسلوب المحدثين .

١ - تبيين مساءلة الامامة والدعوة إليها

هذا الموضوع يشكل أبرز خصائص دعوة أئمة أهل البيت ، منذ السنوات الاولى التي اعقبت رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله . كانت مساءلة إثبات إمامة أهل البيت عليهم السلام تشكل طبيعة الدعوة في كل أعصار الامامة .. هذه المساءلة نشاهدها أيضاً في ثورة الحسين بن علي عليهما السلام ، ونشاهدها بعد ذلك أيضاً في ثورات أبناء أئمة أهل البيت ، مثل زيد بن علي . ودعوة الامام الصادق عليه السلام لم تخرج عن هذا النطاق أيضاً.

قبل أن نستعرض وثائق هذا الموضوع ، يجب علينا أن نعرف أولاً مفهوم "الامامة" في الفكر الاسلامي . وما معنى الدعوة الى الامامة ؟

كلمة "الامامة" تعني في الاصل القيادة بمعناها المطلق ، وفي الفكر الاسلامي تطلق غالباً على مصداقها الخاص ، وهو القيادة في الشؤون الاجتماعية ، الفكرية منها والسياسية .

وأيضا وردت في القرآن مشتقات لكلمة الامامة (امام ، أئمة) ، فإرادتها هذا المعنى الخاص لقيادة الامة . ففي بعض المواضع يقصد بها القيادة الفكرية وفي مواضع أخرى يراد بها القيادة السياسية ، او الاثنتين معا.

بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وظهر الانشقاق الفكري والسياسي بين المسلمين اتخذت كلمة الامامة والامام مكانة خاصة ، لأن مساءلة القيادة السياسية شكّلت محور الاساس للاختلاف . والكلمة كان لها في البداية مدلولها السياسي اكثر من أي مدلول آخر ، ثم انضمت إليها بالتدريج معانٍ أخرى ، حتى أصبحت مساءلة "الامامة" تشكل في القرن الثاني أهم مسائل المدارس الكلامية

ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة ، وكانت هذه المدارس تطرح آراءها بشأن شروط الامام وخصائصه ، أي شروط الحاكم في المجتمع الاسلامي، وهو معنى سياسي للامامة .

إن الامامة في مدرسة اهل البيت - التي يرى أتباعها أنهم يمثلون أنقى تيار فكري اسلامي - لها المعنى نفسه ، ونظرية هذه المدرسة بشأن الامامة تتلخص فيما يلي:

الامام والزعيم السياسي في المجتمع الاسلامي يجب أن يكون منصوباً من الله ، بإعلان من النبي. ويجب أن يكون قائداً فكرياً ومفسراً للقرآن وعالمياً بكل دقائق الدين ورموزه ، ويجب أن يكون معصوماً مبرأً من كل عيب خلقي واءخلاقى وسببي. ويجب ان يكون من سلالة طاهرة نقية و...

وبذلك فإن الامامة كانت في العرف الاسلامي خلال القرنين الاول والثاني تعني القيادة السياسية ، وفي العرف الخاص باتباع أهل البيت تعني، اضافة الى القيادة السياسية ، القيادة الفكرية والاخلاقية ايضاً.

فالشيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتعاً بخصائص هي - اضافة الى قدرته على ادارة الامور الاجتماعية - مقدرته على التوجيه والارشاد والتعليم في الحقل الفكري والديني، والتزكية الخلقية . وإن لم تتوفر فيه هذه المقدره لا يمكن أن يرقى الى مستوى "الامامة الحقة" . وليس بكاف - في نظرهم - حسن الادارة السياسية والاقتدار العسكري والفتوحات وأمثالها من الخصائص التي كانت معياراً كافياً لدى غيرهم .

فمفهوم الامامة لدى اتباع أهل البيت - اذن - يتجه الى اعطاء إمامة المجتمع صفة قيادة ذلك المجتمع في مسيرته الجماعية والفردية . فالامام رائد مسيرة التعليم والتربية وقائد المسيرة الحياتية . ومن هنا كان "النبي" صلى الله عليه وآله إماماً ايضاً، لأنه القائد الفكري والسياسي للمجتمع الذي أقام دعائمه . وبعد النبي تحتاج الامة الى امام يخلفه ويتحمل عبء مسؤولياته ، (كما في ذلك المسؤولية السياسية) . ويعتقد الشيعة أن النبي نصّ على خلافة علي بن ابي طالب عليه السلام ، ثم تنتقل الامامة بعده الى الائمة المعصومين من ولده (٤٣).

ولا بدّ من الاشارة الى أن تداخل المهام الثلاث للامامة : القيادة السياسية ، والتعليم الديني، والتهذيب الاخلاقي والروحي في الامامة الاسلامية ناشيء من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثلاثة في المشروع الاسلامي للحياة البشرية . فقيادة الامة يجب أن تشمل قيادتها في هذه الحقول الثلاثة ايضاً. وبسبب هذه السعة وهذه الشمولية في مفهوم الامامة لدى الشيعة كان لا بد أن يعين الامام من قبل الله سبحانه .

نستنتج مما سبق أن الامامة ليست ، كما يراها اصحاب النظرة السطحية ، مفهوماً يقابل "الخلافة" و"الحكومة" أو منصباً منحصر بالامور المعنوية والروحية والفكرية ، بل إنها في الفكر الشيعي "قيادة الامة" في شؤون دنياها، وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعية والسياسية (رئيس الدولة) . وايضاً في شؤون التعليم والارشاد والتوجيه المعنوي والروحي، وحلّ المشاكل الفكرية وتبيين الايديولوجية الاسلامية . "قيادة فكرية" .

وهذه المسألة الواضحة أضحت - مع الاسف - غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالامامة ، ولذلك نرى من الضروري عرض بعض النماذج من منات الوثائق القرآنية والحديثية في هذا المجال :

في كتاب "الحجة" من "الكافي" حديث عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الامام ووصف الامام ، ويتضمن معاني عميقة ورائعة .

من ذلك ما ورد بشان الامامة بائنها: "هي منزلة الانبياء، وإرث الارصياء، ان الامامة خلافة الله ، وخلافة الرسول ، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام ، ان الامامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين ، ان الامامة أسّ الاسلام النامي، وفرعه السامي، بالامام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات ، وإمضاء الحدود والاحكام ، ومنع الثغور والاطراف .^(٤٤)

وحول الامام انه :

"النجم الهادي، والماء العذب ، والمنجي من الردى ، والسحاب الماطر، ومفزع العباد في الداهية ، وأمين الله في خلقه ، وحقته على عباده ، وخليفته في بلاده ، والداعي الى الله ، والذاب عن حرم الله ، ونظام الدين ، وعزّ المسلمين ، وغيظ المنافقين ، وبوار الكافرين .^(٤٥)

كل ما كان يمارسه النبي صلى الله عليه وآله من مسؤوليات ومهام يتحملها علي عليه السلام والأئمة من ولده .^(٤٦)

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام نرى تاء كيداً على إطاعة "الارصياء" وتوضّح الرواية أن الارصياء هم أنفسهم الذين عبّر عنهم القرآن بآولي الامر .^(٤٧)

منات الروايات المتفرقة في الابواب المختلفة تصرّح أن مفهوم الامام والامامة في الفكر الشيعي ما هو الا القيادة وإدارة شؤون الأمة المسلمة ، وأن أئمة أهل البيت عليهم السلام هم الاصحاب الحقيقيون للحكومة . وتدلل جميعاً بما لا يقبل الشك على أن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ادّعاتهم الامامة كانوا لا يقتصرون بالمطالبة على المستوى الفكري والمعنوي، بل كانوا يطالبون بالحكومة أيضاً. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل انما هي دعوة لحركة سياسية عسكرية لاستلام السلطة .

هذه الحقيقة ظلت خافية على الباحثين في العصور التالية^(٤٨) ، بينما كانت في فهم اصحاب الائمة والمعاصرين لهم من أوضح الحقائق ، حتى أن "الكميت" في احدى قصائده الهاشميات يصف أئمة أهل البيت عليهم السلام بآئهم ساسة يقودون الناس بطريقة تختلف تماماً عن الطريقة التي يمارسها الحكام الظلمة الذين يعاملون الناس كالبهائم .^(٤٩)

نعود الى الموضوع الأصلي وهو أن بيت القصيد في دعوة الامام الصادق عليه السلام وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام كان يدور حول "الامامة" . ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية ، أمامنا روايات متضاربة تنقل بوضوح وصراحة عن الامام الصادق عليه السلام ادّعاءه الامامة . وكما سنوضح فيما بعد، أن الامام حين يعلن دعوته هذه كان يرى نفسه في مرحلة من الجهاد تستدعي أن يرفض بشكل مباشر صريح حكامّ زمانه ، وأن يعلن نفسه بآئهم صاحب الحق الواقعي، وصاحب الولاية والامامة . ومثل هذا

التصديّ يعني عادة اجتياز سائر المراحل الجهادية السابقة بنجاح . ولا بدّ أن يكون الوعي السياسي والاجتماعي قد انتشر في قاعدة واسعة ، وأن الاستعداد محسوس بالقوة في كل مكان ، وأن الارضية الإيديولوجية قد توفرت في عدد ملحوظ من الافراد، وان جمعاً غفيراً آمن بضرورة إقامة حكومة الحق والعدل ، وأن يكون القائد - أخيراً - قد اتخذ قراره الحاسم بشاءن هذه المواجهة الساخنة . وبدون هذه المقدمات فإن اعلان إمامة شخص معين وقيادته الحقّة للمجتمع أمر فيه تعجّل ولا جدوى منه .

المساءلة الاخرى ، التي لا بدّ من التركيز عليها في هذا المجال ، أن الامام ما كان يكتفي في بعض الموارد باثبات إمامته وحسب ، بل يذكر الى جانب اسمه أسماء أئمة الحق من أسلافه أيضاً، أي إنه يطرح فيالحقيقة سلسلة ائمة أهل البيت بشكل متصل غير قابل للتجزئة والانفصال .

هذا الموقف يشير الى ارتباط جهاد أئمة أهل البيت عليهم السلام وتواصله من الأزمنة السابقة الى عصر الامام الصادق عليه السلام . ان الامام الصادق عليه السلام يقرر امامته باعتبارها النتيجة الحتمية المترتبة على إمامة اسلافه ، وبذلك يبين جذور هذه الدعوة وعمقها فيتاريخ الرسالة الاسلامية ، وارتباطها بصاحب الدعوة الرسول الاكرم عليه أفضل الصلاة والسلام . ولنعرض بعض نماذج دعوة الامام :

أروع رواية في هذا الباب عن "عمرو بن أبي المقدم" ، وفيها تصوير لواقعة عجيبة .

في يوم التاسع من ذي الحجة اذ اجتمع الحجاج في عرفة لأداء منسك الوقوف ، وقد توافدوا على هذا الصعيد من كل فج عميق .. من أقصى خراسان حتى سواحل الاطلنطي .. والموقف حساس وخطير، والدعوة فيه تستطيع أن تجد لها صدى في أقاصي العالم الاسلامي . انضم الإمام عليه السلام الى هذه الجموع الغفيرة المحتشدة ، ليوصل اليها كلمته ، يقول الراوي: رأيت الامام قد وقف بين الجموع ورفع صوته عالياً ليبلغ أسماع الحاضرين ولينتقل الى آذان العالمين وهوينادي:

"أيها الناس ، إن رسول الله كان الامام ثم كان علي بن ابي طالب ، ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي ثم ... " فينادي ثلاث مرات لمن بين يديه ، وعن يمينه وعن يساره ومن خلفه ، اثني عشر صوتاً^(٥١) .

ورواية أخرى عن "ابي الصباح الكناني" أن الامام الامام الصادق عليه السلام يصف نفسه وأئمة الشيعة بآءن لهم "الانفال" و"صفو المال" ..

عن ابي الصباح قال : قال لي ابو عبدالله عليه السلام : "يا أبا الصباح ، نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الانفال ولنا صفو المال ، ونحن الراسخون في العلم ، ونحن المحسودون الذين قال الله في كتابه^(٥١) .

و"صفو المال" هو من الاموال ذات القيمة الرفيعة في غنائم الحرب ، وكان لا يقسم كما تقسم الغنائم بين المجاهدين ، كي لا يستاءر به أحد دون آخر، ويكون كرامة كاذبة لأحد من الناس ، بل إنه يبقى لدى الحاكم الاسلامي يتصرف به لما يحقق مصلحة عامة المسلمين . وكان الحكام الظلمة يستاءثرون بهذا المال ويجعلونه محتصاً بهم غصباً . والامام يصرّح بآءن "صفو المال" يجب أن يكون لهم ، وهكذا الانفال . وهذا يعني أنه يعلن نفسه بصراحة حاكماً شرعياً للمسلمين مسؤولاً عن استثمار هذه الاموال وفق ما يراه تحقيقاً لمصلحة الامة .

وفي حديث آخر يذكر الامام الصادق عليه السلام اسماء اسلافه من الأئمة عليهم السلام واحداً واحداً، ويشهد بإمامتهم وبوجوب طاعتهم ، وحين يصل الى نفسه يسكت ، والمخاطبون يعلمون جيداً أن ميراث العلم والحكم بعد الامام الباقر عليه السلام وصل الى الامام الصادق . وبذلك يعلن الامام عليه السلام حقه في قيادة الامة بأسلوب يجعله مرتبطاً بجده علي بن ابي طالب عليه السلام.^(٩٢) وفيابواب كتاب الحجّة من "الكافي" وكذلك في الجزء ٤٧ من "بحار الانوار" أحاديث كثيرة من هذا القبيل ، تتحدث بصراحة أو بكناية عن ادعاء الامامة والدعوة اليها.

ولإثبات هذه الحقيقة التاريخية أماننا شواهد عن شبكة منظمة لدعوة الامام عليه السلام في جميع أرجاء العالم الاسلامي، والوثائق الكثيرة المتوفرة في هذا المجال تجعل وجود هذه الشبكة أمراً حتمياً لامراء فيه . وهذه الشواهد تبلغ من الكثرة والوثوق بحيث يمكن أن نستدل بها على موضوعنا استدلالاً قاطعاً، ولو لم يتوفر حديث صريح واحد في هذا المجال .

نحن في هذا المجال أمام ظواهر تاريخية ثابتة :

١ - ثمة ارتباط منظم فكري ومالي بين الائمة عليهم السلام وأتباعهم ، وكانت الأموال تُحمل من اطراف العالم الى المدينة كذلكوالاسئلة الدينية تتقاطر عليها.

٢ - اتساع الرقعة الموائية لآل البيت عليهم السلام خاصة في البقاع الحساسة من العالم الاسلامي.

٣ - تجمّع عدد غفير من المحدثين والرواة الخراسانيين والسيستانيين والكوفيين والبصريين واليمانيين والمصريين حول الامام عليه السلام .

فهل إن هذه الظواهر المنسجمة المتناسبة مع بعضها قد حدثت بالصدفة ؟

ولا بد أن نضيف أن هذه الظواهر حدثت في ظل سيطرة سياسية كانت جادة كل الجّد في الغاء حتى اسم علي وآل علي عليه السلام ، بل وسبّ علي على المنابر، وتسليط انواع البطش والارهاب على أتباعهم . فكيف أمكن في مثل هذا الجو خلق قاعدة شعبية عريضة موائية لآل البيت تطوي آلاف الاميال للوصول الى الحجاز والمدينة لتتلمذ على أئمة أهل البيت عليهم السلام وتأخذ عنهم فكر الاسلام فيالحياة الفردية والاجتماعية ، وتتحدث معهم في موارد كثيرة وعن مسائل الثورة على الوضع الفاسد، أو بعبارة الروايات ، تتحدث معهم عن مسائل القيام والخروج !!؟

فلو كان دعاة أهل البيت يقتصرون في حديثهم على علم الأئمة عليهم السلام وزهدهم ، فلماذا يدور الحديث في وسط هؤلاء الاتباع دائماً عن الثورة المسلحة ؟

ألا يدلّ كل هذا على وجود شبكة منظمة للدعوة الى إمامة أهل البيت عليهم السلام بالمعنى الكامل للإمامة ، أي الفكرية والسياسية ؟

وهنا يطرح سؤال عن سبب سكوت التاريخ عن وجود مثل هذه الشبكة المنظمة في دعوة أهل البيت عليهم السلام ، لماذا لم يذكر التاريخ صراحة شيئاً عنها؟

والجواب ما أشرنا إليه سابقاً، يكمن في التزام أصحاب الأئمة بالمبدأ الحركي الحكيم المسمّى بالتقية ، الذي يحول دون نفوذ أي عنصر أجنبي في تنظيم الامام . كما يكمن أيضاً في عدم استطاعة الحركة الجهادية الشيعية من تحقيق أهدافها ومن استلام زمام الحكم

لو أن بني العباس لم يستولوا على السلطة لبقيت دون شك كل نشاطاتهم السرية وذكريات دعوتهم ، مرّها وحلوها، حبيسة فيالصدور، دون أن يعلم بها أحد ودون أن يسجلها التاريخ .

ومع ذلك، ليست قليلة هي الروايات التي تصرّح الى حدّ ما بوجود دعوة واسعة لإمامة أهل البيت عليهم السلام . ونكتفي برواية تقول :

قدم رجل من أهل الكوفة الى خراسان ، فدعا الناس الى ولاية جعفر بن محمد عليهما السلام ، ففرقة أطاعت وأجابت ، وفرقة جحدت وأنكرت ، وفرقة ورعت ووقفت ... ثم تقول الرواية : فخرج من كل فرقة رجل فدخلوا على أبي عبدالله عليه السلام فكان المتكلم منهم ،الذي ورع ووقف . فقال : أصلحك الله ، قدم علينا رجل من أهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايته ، فاءجاب قوم وأنكر قوم وورع قوم ووقفوا. قال الامام عليه السلام : فمن أي الثلاث أنت ؟ قال : من الفرقة التي ورعت ووقفت . قال : فإين كان ورعك ليلة كذاو كذا (وذكره بسقوطه في موقف شهواني)، فارتاب الرجل (٥٢).

الداعية كما ترى من أهل الكوفة ، ومنطقة الدعوة خراسان ، واسم الرجل مكتوم ، ودعوته الى إمامة جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام وولايته وطاعته.

ثمّة وثائق أخرى تبين محتوى دعوة أئمة اهل البيت عليهم السلام وشيعتهم الى الامامة ، تعرضها المناقشات والمجادلات بينهم وبين خصومهم السياسيين (الامويين والعباسيين) . هذه المنازعات كانت تدور احياناً بلغة الاستدلال الكلامي والديني ، وأحياناً بلغة الادب الرفيع المتمثل بالشعر . وكان كل الحجاج يقوم على أساس إثبات حق الامامة السياسية والحكم لأئمة اهل البيت عليهم السلام ، ومقارعة المتزيعين ظلماً وغضباً على كرسي حكومة المسلمين . ان عصر الامام الصادق عليه السلام - لمعاصرتة حركة بني العباس وانتصار هذه الحركة - كان مفعماً بهذا اللون من الحجاج .

كان شعراء بني العباس يحاولون اثبات حق الحكم لبني العباس استناداً الى الادلة نفسها التي يقدمها عادة الطامعون الى السلطة والتشبهون بكرسي الحكم . ويقف شعراء الشيعة مقارعين لحججهم مستدلّين على زيف الحكم العباسي من منطق اسلامي، يقوم على أساس رفض الظلم والاجرام والحيانة بحق الامة الاسلامية .

وللحجاج الشعري بين العباسيين والعلويين أهمية في هذا المجال ، لما كان ينهض به الشعر آنئذ من دور كبير في التعبير عن العواطف والافكار، ولما كان يؤديه في القاعدة الشعبية من تاءثير. يذكر صاحب كتاب "العباسيون الاوائل " دور الادب في القرنين الاول والثاني يقول :

.. كان الادب يؤثر في النفوس ويكسب عواطف الناس وميوهم الى هذه الفئة أو تلك، وكان الشعراء والخطباء بمثابة جريدة العصر، يعبر كل منهم عن رأي سياسي ويدافع عن حزب معين ، مبرزاً الدليل تلو الدليل على صحة دعواه، مفنداً آراء الخصوم بكلام مؤثر وأسلوب بليغ^(٥٤).

شعراء البلاط العباسي كانوا يجتهدون في اثبات حق العباسيين في الخلافة ، باعتبار ارتباطهم بالنبي عن طريق العمومة ، مستدلين على ذلك بادن الارث لا ينتقل الى أبناء البنت مع وجود الاعمام . فالخلافة بعد النبي من حقّ العباس عم النبي ومن بعده أبنائه من بني العباس :

قال مروان بن أبي حفصة :

أتى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام وقال ابان بن عبد الحميد اللاحقي :

فأبناء عباس هم يرثونه كما العملاء بنالعم في الارث قد حجب منطلقين من عاطفة الشعور بالظلم للرد على هذه الأدلة ، بالمنطق نفسه ، وأحياناً بمنطق آخر للاستدلال على حق أئمة أهل البيت في الامامة . من ذلك استدلالهم بحديث غدیر خم كقول السيد الحميري :

من كنت مولاه فهذا له مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا ويردّ محمد بن يحيى بن أبي مرّة التغلبي على استدلال الشاعر العباسي بشاءن وراثة الاعمام فيقول :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن لبني البنات وراثة الاعمام للبنت نصف كامل من ماله والعم متزوك بغير سهامها للطليق وللزات وإنما صلي الطليق مخافة الصمصام يورى دعبل أن كل ما حلّ باهل البيت عليهم السلام من مصائب إنما هو لأنهم ورثوا النبي، فتكالب على هذا الارث الطامعون، وأضروا بمن له الحق في الامامة :

أضربهم إرث النبي فأصبحوا تساهم فيهم خيفة ومنون دعتهم ذناب من أمية وانتحت عليهم دراكاً أزمة وستون وعانت بنو العباس في الدين عيثة تحكّم فيها ظالم وخؤون وسّموار شيداً ليس فيهم لرشده وها ذاك ماءمون وذاك أمين فما قبلت بالرشد منهم رعاية ولا للولي بالأمانة دين وليس من العسير على الباحث في العصر العباسي الاول أن يجدّمات النماذج من المحاورات والمناظرات السياسية بلغة الشعر في هذا المجال . وكان شعراء الشيعة وخصومهم يقيمون الحجج على دعواهم . وليس من المهم أن نعرف في هذه المواجهة مقدار صحة هذه الحجج واستقامتها، ولكن من المهم أن نعرف المحور الذي يدور حوله النزاع، والحق الذي يدعيه الجانبان . هناك حق يدعيه كل جانب ، وهذا الحق هو وراثة رسول الله صلى الله عليه وآله في الحكم وفي قيادة المسلمين .

ليس النزاع بين الجانبين العلوي والعباسي في وراثة الخصال الاخلاقية والمعنوية والفكرية للنبي صلى الله عليه وآله . ليس الخلاف في أحقية هذا أو ذاك في وراثة هذه الخصال . لأن هذه الخصال لا تشكّل حقاً يتنازع عليه فريقان . النزاع حول "حق" يدعيه الجانبان . وقد رأينا أن الشعراء في زمن الامام الصادق عليه السلام يدافعون عن حق الامام في قيادة الامة المسلمة وفي حكم المجتمع الاسلامي، ويخوضون حرباً ضدّ من ليست لهم صلاحية حكومة المسلمين، ولذلك شواهد كثيرة في شعر القرن الثاني الهجري.

وقبل أن نختتم هذا القسم من المناسب أن نشير الى لغة حجاج أخرى ، هي لغة الرسائل . هذه الرسائل الاحتجاجية كانت تتضمن من جهة أهداف الفرقاء بشكل واضح دون لبس ، وكانت تجدها من جهة أخرى صدىً شعبياً بعد انتشار مضمونها، وتاثراً قوياً على الأنصار والخصوم . نذكر من ذلك رسالة محمد بن عبدالله بن الحسن ذي النفس الزكية الى المنصور العباسي . هذا العلويّ الثائر يذكر بصراحة ووضوح أنه يطلب نزع الخلافة من خصومه لتكون في ابناء علي عليهم السلام ، يقول :

"إن أبانا علياً كان الوصيَ و كان الامامَ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء؟"^(٥٥).

ويبدو أن هذا الاستدلال أوردته العلوي رداً على استدلال العباسيين في وراثتهم الخلافة ، لأن بني العباس لم تكن لهم حجة سوى هذا الارث المزعوم ، فإراد أن يسدّ عليهم الطريق ويردّ عليهم بنفس منطقهم . ويلاحظ في العبارة أن ذا النفس الزكية يركّز على إمامة علي عليه السلام انطلاقاً من فهمه لمعنى الامامة ، ثم يركّز على طبيعة دعوة البيت العلوي التي يمثلها هذا الثائر .

٢ - بيان الأحكام وتفسير القرآن وفق ما ورثته مدرسة أهل البيت عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله

هذا النشاط يمكن ملاحظته أيضاً في حياة الامام الصادق عليه السلام بشكل متميز عما نراه في حياة بقية أئمة آل البيت عليهم السلام ، حتى سميّ فقه الشيعة باسم "الفقه الجعفري" . حتى الذين يعضون الطرف عن النشاط السياسي للامام الصادق عليه السلام يجمعون على أن الامام كان يدير أوسع ، أو واحدة من أوسع الحوزات الفقهية في زمانه . والذي بقي مستوراً عن أعين أغلب الباحثين في حياة الامام ، هو المفهوم السياسي ومفهوم المواجهة لهذا اللون من نشاطات الامام ، وهذا ما سنتعرض له الآن .

لا بدّ أن نذكر أولاً، أن منصب الخلافة في الاسلام له خصائص متميزة تجعل الحاكم متميزاً عن الحكام في أنظمة الحكم الاخرى . فالخلافة ليست جهازاً سياسياً فحسب ، بل هي جهاز سياسي - ديني . وإطلاق لقب الخليفة على الحاكم الاسلامي يؤيد هذه الحقيقة ، فهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل ما كان يمارسه الرسول من مهام دينية ومهام قيادية سياسية في المجتمع .

والخليفة في الاسلام يتحمل المسؤوليات السياسية والمسؤوليات الدينية معاً . هذه الحقيقة الثابتة دفعت الخلفاء الذين جاءوا بعد الخلفاء الأولين والذين كانوا ذوي حظ قليل في علوم الدين ، أو لم يكن لهم منه حظ أصلاً، دفعتهم الى سدّ هذا النقص عن طريق رجال دين مسخرين لهم . فاستخدموا فقهاء ومفسرين ومحدثين في بلاطهم ، ليكون جهازهم الحاكم جامعاً أيضاً للجانين الديني والسياسي .

والفائدة الاخرى من وجود وعظا السلاطين في الجهاز الحاكم ، هي إن الحاكم الظالم المستبد كان قادراً متى ما أراد أن يغيّر ويبدل أحكام الدين وفقاً للمصالح . وكان هؤلاء الماءجورون يقومون بهذه العملية ارضاء لأولياء نعمتهم ، تحت غطاء من الاستنباط والاجتهادبنظلي على عامة الناس .

الكتاب والمؤرخون المتقدمون ذكروا لنا نماذج فظيعة من اختلاق الحديث ومن التفسير بالرأي كانت يد القوة السياسية فيها واضحة ، وسنشير الى جانب منها في اقسام حديثنا التالية . هذا العمل الذي اتخذ غالباً في البداية (حتى أواخر القرن الهجري الاول) شكل وضع رواية أو حديث ، راح تدريجياً يأخذ طابع الفتوى . ولذلك نرى فيأواخر عصر بني أمية وأوائل عصر بني العباس ظهور

فقهاء كثيرين استفادوا من أساليب رجراجة في أصول الاستنباط ، ليصدروا الاحكام وفق أذواقهم التي كانت في الواقع أذواق الجهاز الحاكم .

هذه العملية نفسها أُنجزت ايضاً في حقل تفسير القرآن . فالنفسير بالرأي اتجه غالباً الى إعطاء مفاهيم عن الاسلام لا تقوم على أساس سوى ذوق المفسر ورأيه المستمد من ذوق الجهاز الحاكم وإرادته .

من هنا انقسمت العلوم الاسلامية : الفقه والحديث والتفسير منذ أقدم العصور الاسلامية الى تيارين عامين :

التيار الاول : تيار مرتبط بجهاز الحكومة الظالمة الغاصبية ، ويتميز بتقديم الحقيقة في موارد متعددة قرباناً على مذبح "المصالح" التي هي في الواقع مصالح الجهاز الحاكم ، ويتميز ايضاً بتحريف أحكام الله لقاء دراهم معدودات .

والتيار الثاني: التيار الاصيل الامين الذي لا يرى مصلحة أرفع وأسمى من تبين الاحكام الإلهية الصحيحة ، وكان يصطدم - شاء أم أبى - في كل خطوة من خطواته بالجهاز الحاكم ووعاظ السلاطين ، ولذلك اتجه منذ البدء اتجاهاً شعبياً في إطار من الحيطة والحذر .

انطلاقاً من هذا الفهم نعرف بوضوح أن اختلاف "الفقه الجعفري" مع الفقهاء الرسميين في زمن الامام الصادق لم يكن اختلافاً فكرياً عقائدياً فحسب ، بل كان اختلافاً يستمد وجوده من محتواه الهجومياً المعارض أيضاً .

أهم أبعاد هذا المحتوى إثبات خواء الجهاز الحاكم ، وفراغه من كل مضمون ديني، وعجزه عن ادارة الشؤون الفكرية للأمة ، وبعبارة أخرى ، عدم صلاحيته للتصدي لمنصب "الخليفة" . والبعد الآخر تشخيص موارد التحريف في الفقه الرسمي .. هذه التحريفات القائمة على أساس فكر "مصلحي" في بيان الاحكام الفقهية ومداهنة الفقهاء للجهاز الحاكم . والامام الصادق عليه السلام بنشاطه العلمي وتصديده لبيان أحكام الفقه والمعارف الاسلامية ، وتفسير القرآن بطريقة تختلف عن طريقة وعاظ السلاطين قد اتخذ عملياً موقف المعارضة تجاه الجهاز الحاكم . الامام عليه السلام بنشاطه هذا قد بلغني كل الجهاز الديني والفقهي الرسمي الذي يشكل أحد أضلاع حكومة الخلفاء، ويفرغ الجهاز الحاكم من محتواه الديني .

ليس بآيدينا سند ثابت يبين التفات الجهاز الأموي الى هذا المحتوى المعارض لما قام به الامام الصادق عليه السلام من نشاط علمي فقهي . ولكن أغلب الظن أن الجهاز الحاكم العباسي - وخاصة في زمن المنصور الذي كان يتمتع بحكمة وذكاء وتجربة اكتسبها من صراعه السياسي الطويل مع الحكم الأموي قبل وصوله الى السلطة - كان يعي المسائل الدقيقة في نشاطات البيت العلوي . وكان الجهاز الحاكم العباسي يفهم الدور الفاعل الذي يستطيع أن يؤديه هذا النشاط العلمي بشكل غير مباشر .

والتهديدات والضغوط والمضايقات التي كانت تحيط بنشاطات الامام الصادق عليه السلام التعليمية والفقهية من قبل المنصور المنقولة إلينا في روايات تاريخية كثيرة ناتجة من هذا الالتفات الى حساسية المسألة . وهكذا اهتمام المنصور بجمع الفقهاء المشهورين في الحجاز والعراق في مقر حكومته - كما تدل على ذلك النصوص التاريخية العديدة - فإنه ناشئ عن هذا الالتفات أيضاً .

في حديث الامام عليه السلام وتعاليمه لأصحابه ومقربيه كان يستند الى "خواء الخلفاء وجهلهم" ليستدل على أنهم في نظر الاسلام لا يحق لهم أن يحكموا . ونحن نشهد هذه الصيغة من الهجوم على الجهاز الحاكم بوضوح وصرامة في دروسه الفقهية .

يروى عنه قوله عليه السلام : "نحن قوم فرض الله طاعتنا وأنتم تاءتمون بمن لا يُعذر الناس بجهالته".^(٥٦)

أي إن الناس اُخرفوا بسبب جهل حكامهم وولادة امورهم ، وسلوكوا سبيلاً غير سبيل الله . وهؤلاء غير معذورين لدى الله . لأن اطاعة هؤلاء الحكام كانت عملاً اُخرفياً ، فلا يبرر ما يستتبعها من وقوع في الانحرافات .^(٥٧)

في تعليمات الأئمة عليهم السلام قبل الامام الصادق عليه السلام وبعده نرى أيضاً تركيزاً على ضرورة اقتزان القيادة السياسية بالقيادة الفكرية والايديولوجية . ففي رواية عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن جدّه الامام محمد الباقر عليه السلام قال : "إنما مثل السلاح فينا مثل التابوت في بني اسرائيل ، أينما دار التابوت دار الملك (تأمل بدقة المعنى الرمزي في التعبير) وأينما دار السلاح فينا دار العلم .. وفي رواية أخرى : حيثما دار السلاح فينا فتم الامر (الحكم).^(٥٨)

ويسأل الراوي الامام : فيكون السلاح مزايل (مفارقاً) للعلم ؟

قال الامام : لا . أي إن قيادة المجتمع المسلم يجب أن تكون في من بيده السلاح والعلم معا.

الامام عليه السلام إذن يرى أن علم الدين وفهم القرآن بشكل صحيح شرط من شروط الامامة ، ومن جهة أخرى فهو بنشاطه العلمي ، وجمع عدد غفير من مشتاقى علوم الدين حوله ، وتعليمه الدين بشكل يختلف تماماً عن الطريقة المعتادة لدى العلماء والمحدثين والمفسرين المرتبطين بجهاز الخلافة ، يثبت عملياً أصالة اُختوى الدينيلمدرسه ، وزيف الظاهر الديني الذي يتقمّصه جهاز الخلافة ومن لقلّقه من علماء بلاطه . وعن هذا الطريق المهاجم المتواصل العميق الهادئ يضيف على جهاده بعداً جديداً.

وكما ذكرنا من قبل ، فإن الحكّام العباسيين الاوائل الذين قضوا سنين طويلاً قبل تسلّمهم السلطة في نفس أجواء الجهاد العلوي وإلى جانب انصار العلويين ، كانوا على علم بكثير من الخطط والمنعطفات ، وكانوا متفهّمين لدور الهجوم والمواجهة الذي يؤدّيه هذا النشاط فيالفقه والحديث والتفسير أكثر من أسلافهم الأمويين . وقد يكون هذا السبب هو الذي دفع المنصور العباسي في مواجهاته مع الامام الصادق عليه السلام أن يمنع الامام زماً من الجلوس في حلقات التدريس وعن تردّد الناس عليه . حتى أن المفضل بن عمر يقول : "ان المنصور قد كان همّ يقتل ابي عبدالله عليه السلام غير مرّة ، فكان اذا بعث اليه ودعاه ليقنتله فإذا نظر اليه هابه ولم يقتله ، غير انه منع الناس عنه ومنعه من القعود للناس ، واستقصى عليه اشد الاستقصاء ، حتى انه كان يقع لأحدهم مساءلة في دينه في نكاح أو طلاق أو غير ذلك فلا يكون علم ذلك عندهم ، ولا يصلون اليه فيعتزل الرجل وأهله ، فشق ذلك على شيعته وصعب عليهم".^(٥٩)

٣ - إقامة تنظيم سري إيديولوجي - سياسي

مرّ بنا أن الامام الصادق عليه السلام قاد في أواخر العصر الأموي شبكة إعلامية واسعة استهدفت الدعوة الى إمامة آل علي عليه السلام وتبيين مساءلة الامامة بشكلها الصحيح . وهذه الشبكة نهضت بدور مثمر وملحوظ في آقاصي بقاع العالم الاسلامي ، وخاصة فيالعراق وخراسان لنشر مفاهيم الامامة .

ونشير هنا الى جانبٍ صغيرٍ من هذه المسألة . مساءلة التنظيمات السرية في الحياة السياسية للإمام الصادق عليه السلام وباقي الأئمة من أهم المسائل وأكثرها حساسية ، وهي في الوقت نفسه من أغمض فصول حياتهم وأشدّها إبهاماً . وكما ذكرنا، لا يمكن أن نتوقع وجود وثائق صريحة في هذا المجال ، حيث لا يمكن أن نتوقع من الامام أو أحد أصحابه أن يعترف صراحة بوجود هذه التنظيمات - السياسية - الفكرية .

فهذا مما لا يمكن الكشف عنه . الشيء المعقول هو أن الامام ينبغي شدة وجود مثل هذا التنظيم السري، وهكذا أصحابه ، ويعتبرون ذلك تهمة وسوء ظن فيما لو تعرّضوا لاستجواب جهاز السلطة . هذه هي خاصية العمل السري، والباحث في حياة الأئمة عليهم السلام أيضاً من حقّه أن لا يقتنع بوجود مثل هذا التنظيم دون دليل مقنع . اذن فلا بدّ أن نبحث عن القرائن والشواهد والحوادث التي تبدو بسيطة لاتلفت نظر المطالع العادي، لنبحث عن دلالاتها في هذا المجال . بهذا اللون من التدقيق في حياة الأئمة عليهم السلام خلال قرنين ونصف القرن من حياتهم يستطيع الباحث أن يطمئن الى وجود مثل هذه التنظيمات التي تعمل تحت قيادة الأئمة عليهم السلام .

ما المقصود بالتنظيم ؟ ليس المقصود به طبعاً حزباً منظماً بالمفهوم المعروف اليوم ، ولا يعني وجود كوادر منظمة ذات قيادات اقليمية مرتبطة ارتباطاً هرمياً، فلم يكن شيء من هذا موجوداً ولا يمكن أن يوجد. المقصود بالتنظيم وجود جماعة بشرية ذات هدف مشترك تقوم بنشاطات متنوعة تتجه نحو ذلك الهدف ، وترتبط بمركز واحد وقلب نابض واحد ودماغ مفكر واحد، وتسود بين أفرادها روابط عاطفية مشتركة .

هذه الجماعة كانت في زمن الإمام علي عليه السلام (أي خلال السنوات الخمس والعشرين بين وفاة الرسول الاكرم وبيعته للخلافة) كان يجمعها الايمان باءحقية الامام علي عليه السلام في الخلافة ، وكانت تعلن وفاءها الفكري والسياسي للإمام ، غير أنها كانت تحذو حذو الإمام علي عليه السلام في عدم إثارة ما يزلزل المجتمع الاسلامي الوليد، كما كانت تنهض بما كان ينهض به الامام علي عليه السلام في تلك السنوات من مهام رسالية تستهدف صيانة الاسلام ونشره ، ومحاولة الحدّ من الانحرافات . واتخذت لولائها هذا اسم "شيعة علي"، ومن وجوههم المشهورة : سلمان وعمار وأبو ذر وأبي بن كعب والمقداد وحذيفة وغيرهم من الصحابة الأجلاء.

ولدينا شواهد تاريخية تثبت أن هؤلاء كانوا يشيعون بين الناس فكرهم بشاءن إمامة علي عليه السلام بشكل حكيم . وعملهم هذا كان مقدمة لالتفاف الناس حول الامام وإقامة الحكم العلوي.

بعد أن استلم الامام علي عليه السلام مقاليد الأمور سنة ٣٥ هجرية ، كان حول الامام علي صنفان من الناس : صنف عرف الامام ومكانته وفهم معنى الامامة وآمن بها، وهم شيعة الذين تربوا على يد الامام بشكل مباشر أو غير مباشر . وعامة الناس الذين عاشوا أجواء تربية الامام ونهجه ولكنهم لم يكونوا مرتبطين فكرياً وروحياً بالجماعة التي ربّاه الامام تربية خاصة .

ولذلك نجد بين اتباع الامام صنفين من الافراد بينهما تفاوت كبير: صنف يضم عمراً ومالكاً الاشتهر وحجر بن عدي وسهل بن حنيف وقيس بن سعد وامثالهم ، وصنف من مثل ابي موسى الاشعري وزيايد بن أبيه ونظرانهم .

بعد حادثة صلح الامام الحسن عليه السلام كانت الخطوة الهامة التي اتخذها الامام نشر فكر مدرسة اهل البيت ، ولم تشتت المواليين لهذا الفكر، إذ اتاحت الفرصة لحركة أوسع بسبب اضطهاد السلطة الأموية . وهكذا كان دائماً، فالاضطهاد يؤدي الى انسجام القوى المضطهدة وتلاحمها وتجديدها بدل تبعتها وتشتتها. واتجهت استراتيجية الامام الحسن عليه السلام الى تجميع القوى الاصيلة الموالية ، وحفظها من بطش الجهاز الأموي، ونشر الفكر الاسلامي الاصيل في دائرة محدودة ، ولكن بشكل عميق ، وكسب الافراد الى صفوف المواليين ، وانتظار الفرصة المؤاتية للثورة على النظام وتفجير أركانه ، وإحلال الحكم العلوي مكانه .. وهذه الاستراتيجية في العمل هي التي جعلت الامام الحسن عليه السلام أمام خيار واحد وهو الصلح .

ومن هنا نرى أن جمعاً من الشيعة برئاسة المسيب بن نجبة وسليمان بن صرد الخزاعي يقدمون على الامام الحسن عليه السلام بعد حادثة الصلح في المدينة ، حيث اتخذها الامام قاعدة لعمله الفكري والسياسي بعد عودته من الكوفة ، ويقترحون عليه إعادة قواهم وتنظيماتهم العسكرية والاستيلاء على الكوفة والاشتباك مع جيش الشام ، والامام يستدعي هذين الاثنتين من بين الجمع ، ويختلي بهما ويحدثهما بحديث لا يعرف فحواه ، يخرجان بعده بقناعة تامة بعدم جدوى هذه الخطة . وحين يعود الاثنان الى من جاء معهما يفهمانهم باقتضاب أن الثورة المسلحة مرفوضة ، ولا بدّ من العودة الى الكوفة لاستئناف نشاط جديد فيها.^(١٠)

هذه حادثة مهمة لها دلالات كبيرة حدث ببعض المؤرخين المعاصرين الى اعتبار ذلك المجلس الحجر الاساس في إقامة التنظيم الشيعي.

والواقع أن الخطوة الأولى لإقامة التنظيم الشيعي لو كانت حقاً قد اتخذت في ذلك اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام والرجلين القادمين من العراق ، فإن مثل هذه الخطوة قد أوصى بها الامام علي عليه السلام من قبل حين أوصى المقرئين من اصحابه بقوله : "لو قد فقدتوني لرأيتكم بعدي أشياء يتمنى أحدكم الموت مما يرى من الجور والعدوان والأثرة والاستخفاف بحق الله والخوف على نفسه ، فاذا كان ذلك:

- فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ..

- وعليكم بالصبر والصلاة .

- والتقية .

واعلموا أن الله عزّ وجل يعرض من عباده (التلون) لا تزولوا عن (الحق وأهله) فإن من استبدل بنا هلك، وفاتته الدنيا وخرج منها آثماً.^(١١)

هذا النص الذي يرسم بوضوح الوضع المأساوي في العصر الأموي، ويوجه المؤمنين الى التلاحم والتعاقد والتنسيق والانسجام يعتبر أروع وثيقة من وثائق الجهاز التنظيمي في حركة آل البيت عليهم السلام . وهذا المشروع التنظيمي يتبلور في شكله العملي في اللقاء بين الامام الحسن عليه السلام واثنين من الشيعة الخالص . ومما لا شك فيه أن أتباع أهل البيت لم يكونوا جميعاً مطلعين على هذا المشروع الدقيق . ولعل هذا يبرّر ما كان يصدر من بعض صحابة الامام الحسن عليه السلام من اعتراض وانتقاد. وكان المعتزّون يواجهون قول الامام الذي مضمونه : "...من يدري، لعله اختبار لكم ونفع زائل لأعدائكم ...".

وفي هذه الاجابة إشارة خفية الى سياسة الامام وتديره (٦٢).

خلال الاعوام العشرين من حكومة معاوية بكل ما احاط فيها البيت العلوي من إعلام مكثف مضاد، بلغ درجة لعن الامام أميرالمؤمنين عليه السلام على منابر المسلمين ، وبكل ما شهدتها من انسحاب الامامين الحسن والحسين عليهما السلام من ساحة النشاط العلني المشهود، لا نرى سبباً في انتشار فكر أهل البيت واتساع القاعدة الشيعية في الحجاز والعراق سوى وجود هذا التنظيم

ولنلق نظرة على الساحة الفكرية في هذه المناطق بعد عشرين عاماً من صلح الامام الحسن عليه السلام .

في الكوفة نرى رجال الشيعة من ابرز الوجوه وأشهرها. وفي مكة والمدينة بل وفي المناطق النائية نرى أتباع أهل البيت مثل حلقات مزبطة يعرف بعضها ما يلّم بالبعض الآخر .

حين يستشهد بعد اعوام أحد رجال الشيعة وهو "حجر بن عدي" ترتفع أصوات الاعتراض في مناطق عديدة من البلاد الاسلامية ، على رغم الارهاب المفروض على كل مكان ، ويبلغ الخزن والاسى بشخصية معروفة في خراسان أن يموت كمدماً بعد إعلان الاعتراض الغاضب (٦٣).

وبعد موت معاوية ترد على الامام الحسين عليه السلام آلاف الرسائل تدعوه أن ياتي الى الكوفة لقيادة الثورة . وبعد استشهاد الامام يلتحق عشرات الآلاف بمجموعة "التوابين" ، أو ينخرطون في جيش المختار وإبراهيم بن مالك ضد الحكم الاموي.

ومن حق الباحث في التاريخ الاسلامي أن يسأل عن العوامل الكامنة وراء شيوع هذا الفكر والتحرك الموالي لآل البيت عليهم السلام . هل يمكن أن يتم دون وجود نشاط مكثف محسوب منظم متحد في الخطة والهدف !؟

الجواب : لا طبعاً. فالإعلام الهائل ، الذي وجهته السلطة الأموية عن طريق منات القضاة والولاة والخطباء، لا يمكن إحباطه وإفشاله دون إعلام مضاد مخطط مرسوم ، ينهض به تنظيم منسجم موحد غير مكشوف . وقبيل وفاة معاوية تزايد نشاط هذا الجهاز العلوي المنظم وتساعدت سرعة عمله . حتى أن والي المدينة يكتب الى معاوية مامضونه : "أما بعد، فإن عمر بن عثمان (عين والي المدينة على الحسين عليه السلام اخبرنا بآءن رجلاً من العراق وبعض شخصيات الحجاز يزددون على الحسين بن علي، وتدور بينهم احاديث حول رفع راية التمرّد والعصيان ... فاكتبوا لنا ماذا ترون (٦٤).

بعد واقعة كربلاء وشهادة الامام الحسين عليه السلام تصاعف النشاط التنظيمي لشيعة العراق على أثر الصدمة النفسية التي أءصيبواها في مقتل الامام الحسين عليه السلام ، حيث بوغتوا بهذه الجريمة التي سلبتهم قدرة الالتحاق بركب الحسين وأهل بيته في كربلاء. وكان هذا التحرك مؤطراً بالألم والحسرة والأسف .

يقول الطبري: فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السرّ من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين ، فكان يجيبهم القوم بعد القوم والتغر بعد التغر، فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية (٦٥).

وحقاً ما تقوله مؤلّفه جهاد الشيعة إذ تعلق على قول الطبريبالقول :

وظهرت جماعة الشيعة بعد مقتل الامام الحسين عليه السلام كجماعة منظمة ، تربطها روابط سياسية وآراء دينية ، لها اجتماعاتها وزعمائها، ثم لها قواتها العسكرية ، وكانت جماعة "التوابين " اول مظهر لذلك كله .^(٦٦)

ويبدو، من دراسة أحداث التاريخ ورأي المؤرخين في تلك البرهة الزمنية ، أن الشيعة كانوا يتولون مسؤولية القيادة والتخطيط ، أما القاعدة العريضة الساخطة على بني امية ، فكانت أوسع من المجموعة الشيعية المنظمة ، وكانت هذه القاعدة تنضم الى كل حركة ذات صبغة شيعية .

من هنا فإن المتحرّكين ضدّ بني أمية ، وإن رفعوا شعارات شيعية ، لا ينبغي أن نتصورهم جميعاً باءنهم في عداد الشيعة ، أي في عداد الجهاز التنظيمي لأنمة أهل البيت عليهم السلام .

انطلاقاً مما سبق ، أودّ التأكيد على أن اسم الشيعة بعد شهادة الامام الحسين عليه السلام أُطلق فقط على المجموعة التي كانت لها علاقة وثيقة بالامام الحق ، تماماً كما كان الحال في زمن امير المؤمنين عليه السلام .

هذه المجموعة هي التي عمدت بعد صلح الامام الحسن عليه السلام الى تأسيس التنظيم الشيعي باءمر الامام ، وهي التي نشطت في كسب الافراد الى التنظيم ودفع أفراد أكثر، لم يرتفعوا في الفكر والنضج العملي الى مستوى الانخراط في التنظيم ، نحو التيار العام للحركة الشيعية .

والرواية التي اوردناها عن الامام الصادق عليه السلام في بداية هذا الحديث ، والتي تذكر أن عدد المؤمنين بعد حادثة عاشوراء لم يتجاوز الثلاثة أو الخمسة ، إنما تقصد أفراد هذه المجموعة الخاصة .. أي هؤلاء الذين كان لهم الدور الرائد الواعي في مسيرة حركة التكامل الثورية العلوية .

وعلى اثر النشاط المنتسز المهادن الذي قام به الامام السجاد عليه السلام توسعت قاعدة هذه المجموعة ، والى هذا يشير الامام الصادق عليه السلام في الرواية المذكورة : "ثم خلق الناس وكثروا". وسنرى أن عصر الامام السجاد والامام الباقر والامام الصادق عليهم السلام شهد تحرك هذا الجمع تحركاً اثار الرعب والفرع في قلوب الحكام الظالمين ، ودفع هؤلاء الحكام الى ردود فعل قاسية .

وبعبارة موجزة ، فإن اسم الشيعة في القرنين الاول والثانيهجرين وفي زمن الأئمة عليهم السلام ما كان يُطلق على الذين يجنّون آل بيت النبي عليهم السلام أو المؤمنين بحقهم وبصدق دعوتهم فقط ، من دون اشتراك في مسيرتهم الحركية . بل إن الشيعة كانوا يتميزون بشرط أساسي وحتمي، وهو عبارة عن الارتباط الفكري والعمل بالامام ، والاشتراك في النشاط الفكري والسياسي، بل والعسكري الذي يقوده لإعادة الحق الى نصابه ، وإقامة النظام العلوي الاسلامي. هذا الارتباط هو نفسه الذي يطلق عليه في قاموس التشيع اسم "الولاية" .

جماعة الشيعة كانت تطلق في الواقع على أعضاء حزب الامامة .. هذا الحزب الذي كان يتحرّك بقيادة الامام عليه السلام ، وكان يتخذ من الاستتار والنقية خندقاً له مثل كل الاحزاب والتنظيمات المضطهدة التي تعيش في جو الارهاب . هذه خلاصة النظرة الواقعية لحياة الأئمة عليهم السلام ، وخاصة الامام الصادق عليه السلام . وكما ذكرنا من قبل لا يمكن أن يكون مثل هذه المسألة

دلائل صريحة ، إذ لا يمكن أن نتوقع من بيت سرّي أن يحمل لافتة تقول : "هذا بيت سرّي"! وكذلك لا يمكن أن نطمئن الى النتيجة دون قرائن حاسمة .

من هنا ينبغي أن نتتبع القرائن والشواهد والاشارات .

من العبارات العميقة التي تلفت نظر الباحث المدقق في الروايات المرتبطة بحياة الأئمة عليهم السلام ، أو في كلام مؤلّفي القرون الاسلامية الاولى ، عبارة "باب" و"وكيل" و"صاحب السر" وهي عبارات تطلق على بعض اصحاب الائمة . فمثلاً، يقول ابن شهر آشوب المحدث الشيعي الشهير في سيرة الامام السجاد عليه السلام : "وكان بابه يحيى بن ام الطويل" وفي سيرة الامام الباقر عليه السلام يقول : "وكان بابه جابر بن يزيد الجعفي"، وفي ترجمة الصادق عليه السلام يقول : "وكان بابه محمد بن سنان". وفي "رجال الكشي" ترد حول زرارة وبريد و محمد بن مسلم وأبي بصير عبارة : "مستودع سرّي". وفيكتب الحديث تروى عن الامام الصادق عليه السلام عبارة "وكيل" ب"شاءن المعلى بن خنيس . وكل واحد من هذه التعبيرات ، إن لم تكن صادرة عن الامام ، فإنها دون شك حصيلة دراسة موسعة في حياة الائمة ، نهض بها المؤلفون الشيعة القدامى . واختيار هذه التعبيرات العميقة على أي حال ينطلق من معالم بارزة في حياة أئمة اهل البيت عليهم السلام . ولو تأملنا في هذه التعبيرات لألفينا أن كل واحد منها يدل على وجود جهاز فعال مستتر وراء النشاط الظاهري للائمة عليهم السلام .

مستودع السر

إذا لم يكن لأحدٍ "سرٌّ" فليس له مستودع سر . فما هو هذا السر في حياة الائمة ؟ ما هذا الذي لا يتحمله أصحاب الأئمة عامة ، بل ثمة نفر معدود له لياقة وصلاحيّة تحمّله ، وبذلك نال شرف اسم "مستودع السر"؟!

ولقد راحت الذهنية المتأخرة البعيدة عن واقع الاحداث وتمحيصها تفسّر هذا السر بآءنه "سر الإمامة" . كما راحت تفسّر سرّ الإمامة بآءنه الاسرار الغيبية والقدرة على الخوارق والمعجز .

أنا أو من بقدرة هذه الصفوة المقدسة من أهل البيت ، الذين اختارهم الله لمواصلة مهمة حمل الرسالة وتبليغها بعد رسول الله ، أن يحملوا مثل هذه القدرة ومثل هذه العلوم ، كما أو من بآءن تحليهم بهذه القوى والعلوم لا يتنافى أصلاً مع نظرة الاسلام الى الانسان والنواميس الطبيعية وسنن الكون . ولكن هذه القوى والعلوم ليست هي "سر الامام" . فمثل هذه القوى والعلوم أوضح دليل على الإمامة وعلى صدق دعوى الامام . لماذا يكتف الامام هذه الامور ويوصي اصحابه بكتمانها في روايات كثيرة ، تصافرت حتى أصبحت الكتب الحديثية الشيعية تتضمن باباً يحمل عنوان : "باب الكتمان" ^(١٧) لا بدّ أن يكون هذا السرّ مما لو شاع لشكل خطراً كبيراً على الامام وأصحابه ، وهذا شيء غير الغيبيات والخوارق .

هل السرّ هو معارف أهل البيت ؟ هل هو رؤية مدرسة أهل البيت للاسلام وفقهها وأحكامها؟ لا ننكر أن معارف مدرسة أهل البيت كانت تنشر في عصر الاضطهاد الأموي والعباسي وفق منهج الحكمة والتدبير ، لكي لا يخوض فيها كل من هبّ ودبّ ، ولكن هذه المعارف لا يمكن أن تكون هي سرّ الامام . فمع كل ما أحاط بهذه المعارف من اختصاص ، كانت تدرس في منات الخوزات الفقهية والحديثية في عددمن كبريات مدن الصقع الاسلامي آنذاك، كان الشيعة يتناقلون هذه المعارف ويشرحونها ويتداولونها . بعبارة أخرى كانت هذه المعارف خاصة لا سرّية .

واختصاصها يعني أن رواجها كان محدوداً بالدائرة الشيعية ، لكنها كانت تصل الى غير الشيعة أيضاً في ظروف خاصة . لم تكن أبداً محدودة بأفراد معدودين من أصحاب الأئمة وخافية على غيرهم .

الحق أن الاسرار هي ما يتعلق بالمعلومات المرتبطة بالجهاز التنظيمي للامام .. بالجهاز الذي يخوض معتركاً سياسياً باتجاه هدف ثوري.. بالتكتيك الذي ينتجه الجهاز... بالعمليات التي ينفذها.. بأسماء ومهام اعضاء الجهاز.. بمصادر التمويل .. بالاخبار والتقارير المتعلقة بالاحداث الهامة .. هذه وأمثالها من الاسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها سوى القائد والكوادر المسؤولة . ربما تحين الظروف المناسبة عاجلاً أم آجلاً لإعلان هذه الاسرار وكشفها، ولكن قبل أن تحين تلك الظروف لا يمكن أن يطلع على هذه الاسرار سوى من يرتبط عمله مباشرة بها، وهم "مستودع السر" . وكل تسريب لهذه المعلومات الى أوساط الشيعة فإنه يفتح ثغرة تسربها الى الاعداء، وهو خطأ كبير لا يغتفر، خطأ قد يؤدي الى انهدام الجهود والاعمال والمجموعة المنتظمة . ومن هنا نفهم ما يعنيه الامام عليه السلام إذ يقول : "ليس الناصب لنا حرباً بلاء عظيم مؤنة علينا من المذبح علينا سرتنا. فمن اذاع سرتنا الى غير اهله لم يفارق الدنيا حتى يعضه السلاح." (٦٨)

الباب والوكيل

في الارتباطات السرية بين الامام عليه السلام والشيعة قد يتطلب الامر اىصال بعض المعلومات الى الشيعة عن طريق "واسطة" ، وهذا تدبير معقول وطبيعي. العيون المتلصقة على كشف ارتباطات الامام عليه السلام تزداد التفتتاته باتباعه في موسم الحج في مكة والمدينة حين تؤمها القوافل من اقاصي العالم ، وقد يؤدي رصد هذه اللقاءات الى اكتشاف خيوط الجهاز المركزي لتنظيم الامام ، لذلك نرى أن الامام عليه السلام كان يُبعد عنه بعض الافراد بلهجة لينة أحياناً، ومعاملة تارة أخرى . يقول لسفيان الثوري مثلاً: "أنت رجلٌ مطلوب ولللسان علينا عيون فاخرج عنا غير مطرود." (٦٩)

ويترحم الامام عليه السلام على شخص صادفه في الطريق وأعرض بوجهه عنه ، ويدم شخصاً آخر رآه في ظروف مشابهة فسلم عليه باحترام واجلال (٧٠) مثل هذه الظروف تستلزم وجود فرد يكون واسطة بين الامام عليه السلام وبين من يحتاج الى معلومات تصل اليه من الامام ، وهذا الواسطة هو "الباب" ، ويجب أن يكون من أخلص أتباع الامام ، وأقربهم اليه ، وأغناهم بالمعلومات والخطط . يجب أن يكون مثل "نحلة" إذا عرفت الحشرات المضرّة ما تحملهُ من عسل قَطَعْتَهَا وأغارت على شهدها. (٧١) وليس صدفة أن نرى تعرّض هؤلاء "الابواب" غالباً للمطاردة وأقصى ألوان البطش والتكيد .

إن يحيى بن ام الطويل "باب" الامام السجاد عليه السلام يُقتل بشكل شنيع (٧٢). وجابر بن يزيد الجعفي باب الامام الباقر عليه السلام يتظاهر بالجنون ويشيع عنه ذلك فينتجيه من القتل الذي صدر الأمر به من الخليفة قبل أيام من اشتها جتونه . ومحمد بن سنان ، باب الامام الصادق عليه السلام ، يتعرّض لطرد ظاهري من الامام رغم أن الامام أبدى رضاه عنه في مواضع أخرى وأثنى عليه ، وما ذلك إلا لتعرّض محمد بن سنان لمثل هذه الأخطار. كما أن إعلان الامام براءته من راوٍ معروف مشهور حظي بإعلان رضا الامام عليه السلام مراراً يعود على الاقوى الى تكتيك تنظيمي.

مثل هذا المصير يواجهه "الوكيل" أيضاً. مسؤول جمع الأموال المرتبطة بالامام وتوزيعها، يملك أيضاً كثيراً من الاسرار وأقلها أسماء الدافعين والقابضين ، وليست هذه المعلومات بالتي يستهين بها أعداء الامام ، وأفضل دليل على ذلك مصير المعلّى بن خنيس

وكيل الامام الصادق عليه السلام في المدينة ، وتعبيرات الامام القائمة على أساس التقية بشاءن المفضل بن عمر وكيل الامام في الكوفة .

هذه العناوين الثلاثة (الباب ، الوكيل ، صاحب السر) التي نجد مصاديقها في وجوه بارزة من رجال الشيعة تلقي ظلالاً على واقع الشيعة وارتباطهم بالامام والحركة التنظيمية الشيعية .

يمكننا بهذه النظرة أن نفهم الشيعة بآئهم مجموعة من العناصر المنسجمة الهادفة النشطة المتمركزة حول محور مقدس يشع بتعاليمه وأوامره على القاعدة ، والقاعدة ترتبط به وتنقل اليه المعلومات وتضبط مشاعرها وتسيطر على عواطفها بتوصياته الحكيمة ، وتلتزم التزاماً دينياً بآساليب العمل السري، مثل حفظ الاسرار، وقلة الكلام ، والابتعاد عن الاضواء والتعاون الجماعي والزهد الثوري.

(٣٦) خالد بن عبدالله القسري والي العراق كان عانده السنوي ثلاثة عشر مليوناً. وكتب اليه الخليفة أن لا يبيع غلته قبل بيع غلة الخليفة . فصعد خالد المنبر ، وذكر أن قوماً يتهمونه بالتلاعب بالاسعار، ولعن من يتلاعب بالاسعار (ويقصد بذلك الخليفة وكان عليه واجداً). وامرأة هشام كان لها ثوب خيوطه من الذهب ، ومرصع بالجواهرات القيمة ، وقد ثقل وزنه حتى ما كانت تقدر على أن تمشي به . ولم يستطع أحد أن يضع له قيمة . وهشام نفسه كان له بساط من الحرير والذهب طوله ١٠٠ ذراع وعرضه ٥٠ ذراعاً. (ابن ابرج ٥ | ٢٢٠ ، وبين الخفاء والخلفاء ص ٢٨ و ٥٦ .

(٣٧) من ذلك فتوى الحسن البصري في عدم جواز الخروج على الحجاج بن يوسف ، ذلك الطاغية الذي سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة قاتلاً: أرى أن لا تقاتلوه ، فانها إن تكن عقوبة من الله فما أنتم برادّي عقوبة الله بآسلافكم ، وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (نظرية الامامة لدى الشيعة الاثني عشرية ، د. احمد محمود صبحي، ص ٢٣ .

(٣٨) مع كل الانحرافات التي عصفت بالمجتمع كان الايمان بالدين يسيطر على الافكار والقلوب ، والظلمة الطغاة استغلوا هذا الايمان ، فقدموا للمجتمع مفاهيم منحرفة باسم الدين تضمن بقاءهم واستمرار ظلمهم وتحكمهم . من ذلك اضعاف صفة القدسية على "اليعة" . فكلما تمادى الخليفة في غيّه وظلمه لاحتجوز معصيته ولا الثورة عليه لان له في الاعناق بيعة ! وكان لهذا المفهوم دوره الكبير في خلق حالة من الخضوع والخنوع أمام الجهاز الحاكم .

(٣٩) بحار الانوار ٤٧ : ١٣ ، باب ٣ الرواية ٦ ، ط بيروت .

(٤٠) بحار الانوار ٤٧ : ١٣ ، باب ٣ الرواية ٤ عن الارشاد: ٢٨٩ .

(٤١) رجال الكشي: ١٥٨ ط : مصطفىوي.

(٤٢) رجال الكشي: ١٥٦ - ١٥٧ ط : مصطفىوي.

(٤٣) راجع تفاصيل ادلة هذه المسألة في مظانها.

(٤٤) اصول الكافي.

(٤٥) المصدر نفسه "عبارات متفرقة مختارة من النص.

(٤٦) جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله (...) ولقد حملت على مثل حملته (...) وكذلك يجري لأئمة الهدى واحدا بعد واحد.. الكافي، ج ١: ١٩٦.

(٤٧) الكافي، ١: ١٨٧، ٧ و ١: ١٨٩، ح ١٦.

(٤٨) في العقود الاخيرة صدرت عن المستشرقين والعلماء المسلمين الشيعة والسنة كتابات تصور الدور السلبي للأئمة تجاه مساءلة الحكم ، او الدور الخايد، او المداهن ، بل الدور البعيد كل البعد عن السياسة .راجع مثالا: نظرية الامامة لدى الشيعة ، والتشيع والتصوف ، والامام الصادق والمذاهب الاربعة ، والعباسيون الاوائل .

(٤٩) الغدير ٢: ١٨٧ - ٢١٢.

(٥٠) البحار، ٤٧: ٥٨، ح ١٠٧.

(٥١) البحار، ٢٣: ١٩٩، ح ٣٢. كذلك راجع الرواية ٢٠ من نفس الباب .

(٥٢) الكافي ١: ١٨٦.

(٥٣) البحار، ٤٧: ٧٢ عن بصائر الدرجات ٥: ٦٦.

(٥٤) د. فاروق عمر، العباسيون الاوائل : ١٠٤.

(٥٥) تاريخ الطبري ٦: ١٩٥.

(٥٦) الكافي ١: ١٨٦، ح ٣.

(٥٧) القرآن الكريم يدين أيضاً بآساليب متعددة هذا اللون من الاتباع المؤدي الى الضلال ، ويردّ كل عذريته وسل به التابعون في انحرافهم . راجع سورة البقرة : ١٦٧، الشعراء: ٩١ - ١٠٢، سباء: ٣١ - ٣٣، النساء: ٩٧ .

(٥٨) الكافي، ١: ٢٣٨.

(٥٩) المناقب ، ابن شهر آشوب : ٢٣٨ ط : بيروت .

(٦٠) المعنى نفسه جاء في كتاب الشيخ راضي آل ياسين ، صلح الامام الحسن عليه السلام : ٣١ - ٣٢ ط : بيروت .

(٦١) تحف العقول : ١١٥ . ط ٢ .

(٦٢) هذا الوضع يمكن مقارنته وتشبيهه الى حد ما بوضع المجتمعات المعاصرة التي تحكمها الانظمة الحزبية .

(٦٣) مات الربيع بن زياد الحارثي غماً لمقتل حجر، وذكر ذلك ابن الاثير في الكامل ٣ : ١٩٥ ، وكان سبب موته أنه سخط قتل حجر بن عدي... وذكر ذلك في الاستيعاب ، وأسد الغابة ، والدرجات الرفيعة ، وغيرها. صلح الحسن عليه السلام : ٣٣٨ .

(٦٤) ثورة الحسين : ١١٨ ، نقلاً عن اعيان الشيعة والاختيار الطوال .

(٦٥) الطبري ٧ : ٤٦ ، نقلاً عن د. سميرة مختار الليثي ، جهاد الشيعة : ٢٨ .

(٦٦) د. سميرة الليثي ، جهاد الشيعة : ٢٧ .

(٦٧) رجال الكشي : ٣٨٠ ط مصطفىوي .

(٦٨) رجال الكشي : ٣٨٠ ، ط مصطفىوي .

(٦٩) مناقب ابن شهر آشوب ٤ : ٢٤٨ .

(٧٠) الكافي ٢ : ٢١٩ .

(٧١) هذا التعبير مقتبس من أحد نصوص الامام عليه السلام .

(٧٢) قطعت رجله وهو حي ثم قتل . للتعرف على هذه الشخصية الكبيرة راجع : رجال الكشي وسائر كتب الرجال .